الفصل الخامس

الثقـــافة

- النظم تصنع الثقافة
- نسق القيم الأســاسى
- طبيعــة الثقــافة
- التراث الاجتمــاعى
- التراكم الثقــافى

الاخــتراع ـ الانتشـــار

- التكنولوجيا والثقــافة
- التخــلف الثقــافى
- نقد أفكار التخلف الثقافى

النظم تصنع الثقافة

تعطى النظم الاجتماعية للثقافة عناصرها ، وتلك العناصر تصبح باتساع الثقافة ، وتعتبر العناصر المأخوذة من النظم الزائدة هى العناصر الرئيسية من بين عناصر الثقافة • ويلاحظ أن طبيعة التبجيل للقائد الموهوب Charismatic Leader فى الجيش أو فى السياسة قد يكون ممتازا أو عظيما ، ولكن كل ذلك أمر مؤقت فمثلا رأينا الأسماء المشهورة فى التاريخ تأتى وتذهب ولكن عندما يضطلع نظام بالعمل من خلال كيفياته المعظمة فقد تبقى سيادته فى الثقافة لآلاف السنين • فالاسلام عاش أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، ذلك يرجع الى قوة النظم وخاصة الرائدة ، فديمومتها هى نتيجة لدرجة ارسائها وتأسيسها ، فمدى قبول النظم مرتبط ارتباطا وثيقا بمدى وجودها الحقيقى مستقلا وموضوعيا عن ممارسيها الفرديين • فقد ارتكز الاسلام على مجموعة من القيم مثل الحرية والأخوة والرحمة والتسامح والعدل ، وأكثر من ذلك على أساس أنه نظام للحياة الاجتماعية كلها ، ولهذا انتشرت عناصر النظام باتساع الثقافة كلها ، وأصبح لايوجد جزء من الثقافة ليس فى مجتمع واحد ولكن فى المجتمعات الاسلامية لم يتخلله النظام الاسلامى •

ذلك النظام اذا كان قد نمى واتبع فذلك يرجع الى انسجامه مع واقع الحياة الاجتماعية ولم يكن قاهرا ولا آمرا ، رغم اختلاف البيئات الاجتماعية المنتشرة فيها تلك العناصر• ولهذا تكمن قوة جاذبية اتباعها فى انسجامها مع الواقع الاجتماعى ، وكانت قوة الجاذبية تلك هى الأداة التى انتعش وانتشر بها ذلك النظام وليس سلطة القهر •

فما النظام الا مركب ثقافى مغروس فيه عدد من أنماط السلوك والسمات ويكون له جوه الخاص وطعمه الخاص ، والناس الذين يأتون فى داخل مجاله يتأثرون به ويفعلون سلوكا مطابقا له • فعندما نقول أن جامعة تضع طابعها على الناس وتصبغهم بصبغتها ذلك هو ما نعنيه • نحن نقصد ونشير الى حقيقة أن القيم التى تقدمها الجامعة تعمل على نشأة

قيم مماثلة فى الرجال الذين تعرضوا أى عايشوا تلك القيم ، ومن ناحية أخرى أن هذا يحدث بدون قصد أو وعى أو تخطيط · ومن ثم فتكريس الناس للنظم التى يخدمونها يكون متناسبا مع قدرتهم على الشعور والاحساس بقيمها ·

وهكذا يصبح الارتفاع لنظام ما الى علو وسمو النظام الرائد ليس نتيجة للتفكير المقصود أو التخطيط من جانب الأفراد المعنيين به ، ولكن بالأحرى مسألة القيم التى تجعل من نفسها موضع الاحساس والشعور القوى عند أعضاء المجتمع · وعادة المعتقدات التى يشعر بها أعضاء المجتمع أنها الأحسن والأقوى هى معتقدات نظامية ، وعندما تصل مجموعة القيم التى يقدمها نظام الى مستوى الاعتقاد وتصبح مسلمات عند أعضاء المجتمع ، ذلك النظام يصبح النظام الرائد ، وتضبح قيمه هى نسق القيم الأساس للثقافة ، فالعملية ، اذن ليست فى أى نقطة منها عملية واعية وعن قصد ·

ولهذا عندما يصبح علم الوجود ontology (العلم الذى يعرف حقائق الأشياء) للنظام الرائد هو علم الوجود السائد فى المجتمع ، هنا يحدث تغير عام فى المناخ الاجتماعى · فيكون مناخ المجتمع الكيفى قد تغير ، اذ تنبعث من النظام الرائد حالة أخلاقية تكون شاملة جدا · ويمكن القول أن مشاعرا معينة ، وكيفيات معينة ، وأنواعا معينة من القوى العالية ، أى القيم المنبعثة من هذه الحالة الاخلاقية ، تكتسب سطوة ، بينما أنواع القيم الأخرى لا تكسب شيئا بل تتراجع · ويلاحظ ان ما ينظر اليه على أنه ذو قيمة عالية ذلك دليل على نوع من السيادة · كما أن كمية التقدير التى يعطيها المجتمع لها يكون لها تأثير فى المناخ الأخلاقى للمجتمع · وتصبح هذه الحالة الاخلاقية والقيم المنبعثة منها الوسط الذى يمكن أن تعيش فيه فقط أنواع معينة من القيم ، ليس هذا فقط ما يفعله النظام الرائد خلال علم وجوده الثابت الذى يحدد ما هو صواب وما هو خطأ ، ولكن خلال الحالة الأخلاقية يحدد أيضا ما سوف يكون متاحا الاحساس به · وهكذا ينبثق من هذا كله نسق القيم الأساسى للمجتمع ·

نسـق القيم الاسـاسى

هذا هو ما فعله النظام الدينى الاسلامى فى صدر الاسلام عند ظهوره فى الجزيرة العربية وأصبح الاسلام النظام الرائد للمجتمع وأصبح القرآن الكريم والسنة الشريفة علم الوجود الثابت والسائد للمجتمع عنـد ذلك حدث تغير عام فى المناخ الاجتماعى عند العرب وانبعثت حالة أخـلاقية معينة أرست قيما معينة ، أى صنع نسق القيم الأساسى للمجتمع ، واكتسب هذا النسق سطوة على سائر القيم السابقة والتى تضاءلت بل واختفت ، وأصبح نسق القيم الأساسى لا يقود ويرشد سلوك المسلمين فقط بل ويحدد ما هو مسموح الاحساس به ٠

وهكذا ينبعث نسـق القيم الاسـاسى للثقـافة مـن أسطورة النظـام الرائد (*) ٠ ولكن يمكن أن نميز نسق القيم الأساسى للثقافة عن الأسطورة، ذلك أن الأسطورة هى عادة قصة رمزية تصور طبيعة الحقيقة من وجهـة نظر المجتمع الذى تسود فيه تلك الأسطورة ، بينما نسق القيم الأساسى يعبر عن الحقيقة ، ولكن المنطقيـة التى فيهـا كل الثقـافة تسبح ، ولا يسـتثنى من تأثيرها أى ركن فى أى نظام فى المجتمع ٠ كمـا أن الأسطورة يعـرفها أعضاء المجتمع ويتناقلونها ولكن نسق القيم الأساسى يشعر فقط به أعضاء المجتمـع ٠

ولهذا يمكن اعتبار نسق القيم الأساسى شاملا لكل أنحاء الثقـافة ونافذا الى كل ركن فيها ووحيـدا ليس له منافس من بين القيم ٠ وان كان يشعر به فقط الا أنه شىء يوجد فى العـالم ولكن مميز عن القـدرة التى تدركه ٠ وفى الحقيقة أنه لا يمكن لانسان عاش فى ثقافة واحده أن يـدرك مدى قوة نسق القيم الاساسى نظرا لتنشئته الاجتماعية فى ظله فأصـبح يألفه ويخضع له دون أن يشعر بقوته ، ولكن يشعر بقوته فقط عندما يحاول

---

(١) كل النظم الرائدة الوضعية علم وجودها متضمن فى أسطورة ، ولكن النظام الاسلامى علم وجوده متضمن فى كتاب منزل من لدن حكيم عليم وأيضا فى السنة الشريفة (الفعـال وأقوال قائد النظام) . ولهذا كل الأساطير قابلة للتغير نتيجة للعبث البشرى والأهواء ، الا النظام الاسلامى حيث علم وجوده محفوظ ٠

الموقوف ضده ، أو أن ينتقل لثقافة أخرى ذات نسق قيم أساسى يختلف عن نسق ثقافته فيشعر بوطأته • انها صعوبة ان لم تكن استحالة أن يتنبه الانسان لكيفيات الوسط الذى يغرق فيه •

وينتشر نسق القيم الأساسى ببطء من أسطورة النظام الرائد ويغلف الثقافة كلها ، ونتيجة لذلك نتوقع الحصول على نوع مختلف من المناخ الاجتماعى من ثقافة لأخرى • فالقيمة العالية للبعث عند الفراعنة دفعتهم الى بناء الأهرامات الخالدة على الدهر ، وهى تختلف عن الثقافة اليونانية التى أعطت للعمل الذهنى قيمة عالية التى خلدت الكلاسيكيات اليونانية من أرسطو الى أفلاطون الى سقراط ، كما أن القيمة العالية التى أعطتها الثقافة الاسلامية لمعنى الجهاد من أجل نشر الدعوة جعلت الشهادة فى سبيل الله مطلبا عزيزا لديهم وبها نشروا الدعوة الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها •

وهكذا فى حالة نسق القيم الأساسى ، كما هو الحال مع أى كيفية أخرى ، لا نستطيع أن نفعل أكثر من وصفها بطريق غير مباشر عن طريق استرجاع الأحداث التى يظهر أثره فيها بوضوح ، ونأخذ القياس من بعض مساهماته فى تشكيل الثقافة • فهناك شعور يميز كل نظرة ، فنظرة الانسان فى ثقافة نوعية للعالم وحقائقه تختلف تماما عن نظرة انسان فى ثقافة غربية أو نظرة انسان فى ثقافة اسلامية • فرؤية العالم من خلال نسق القيم الأساسى هى السبب فى قبول أى شىء اذا طوع ليبدو عاديا ومألوفا ، لأن الألفه تعنى فى الواقع الثبات مع جو معين ، ولهذا يعجب الانسان كيف أمكن للقساوسة فى القرون الوسطى اعدام العالم جاليليو أول من قال بكروية الأرض فى العالم الغربى • وكذلك يعجب الانسان كيف وجد وأد البنات عند جاهلية العرب رغم أنه عملية قتل ، وقتل أعز ما يملك الانسان اليوم ، وهى ابنته ، الا أنه فى الجاهلية طوع حتى صار مقبولا عند الجماعة وأصبح شيئا مألوفا فى داخل الجماعة ، وكذلك القاء فتاة فى النيل فى احتفال فيضان النيل عند الفراعنة ، ومثله قتل الشيوخ عند الهنود الحمر وهكذا أكثر الأفعال شناعة ، وأكثر المفاهيم توحشا تبدو مجرد أمور من الفهم العام ، فما هو مقبول عند كل الأفراد يكون واضح الصدق عند كل فرد ، اعتيادية المباشرة للفعل تحوله الى حقيقة صادقة •

وهـكذا يصبح أعمق المعتقدات ، هو الاعتقاد فيمـا يعتبر حقيقة ، ويمكن أن نفسر الحقيقة الآن على أنها تعنى مواضيع القيم المباشرة • ونحـن نعرف أنه لا يستطيع انسان الحياة بين اقرانه لأى فترة من الوقت ويشاركهم اهتماماتهم ومناشطهم دون أن يرتبط معهم ببعض المعتقدات عن الطبيعـة النهائية للأشياء (حقيقة الأشياء) • وهذه المعتقدات تكون مضمرة أكثر منها معلنة ، ولكنها بالتأكيد تسود أفكار أعمال الفرد ، وكلما كانت مألوفة كلما قل تنبهه لها ، وبالتالى زادت قوتها فى العمل • فى هذا المعنى تقوم المعتقدات بوظائفها كاستجابات جاهزة ، انها البديهيات تحـلى العمـل . ذلك يرجع الى أن علم الوجود السائد الذى أصبح نسق القيم الأسـاسى هو أكبر قوة فى حيـاة الفرد •

وفى الحقيقة أن معظم الناس لا يصنعون أفكارا تجريدية أكثر مما هم فى حاجة ماسة اليه ، فالمعتقدات متضمنة كحلول للقضايا الاجتماعية ، وهى أكثر وضوحا فى الشعور (التفكير) والعمل عنها فى التعبير فى الأفكار الواعية ، ولهذا عند مستوى الشـعور والعمـل نجـد ظـاهرة نسق القيم الأساسى • فعندما نعمـل من الشعور ، نحـن نعمـل من ينابيع البديهيـات فمعتقداتنا تفشى عن نفسها فى المشاعر والأعمال ، ولكنها لا تظهـر أبـدا بصراحة على ما هى عليه ، وأحكام نسق القيم الأساسى تمليه المشاعر ، وهكذا تكون قد وجـدت طبقا لحقيقة موضوعية •

فنسق القيم الأساسى هو نسق من التقنينـات ، من رغبات أخـذت على أنها الأحسن ، وذلك بتأثير عاطفى • نسق القيم الأساسى يتوقف على القيم التى توجد خارج الأفراد الذين هم غارقون فيها ، ولذلك (أى موقف يختلف معناه من مجتمع الى مجتمع • اذ أن أعضاء كل مجتمع يكونون منغمسين تماما فى معتقداتهم وعاداتهم ، وهم عادة يفشلون فى الاحساس بأنهم يطيعون معتقدات اجتماعية ، وفقط عندما يخرج الانسان بعيدا عـن معتقداته وعاداته يمكن أن يصبح متنبها لطبيعتهم الواقعية) (١) •

---

1 -- Horton and Hunt : Op. Cit., P. 46

ويلاحظ أن اكتساب البديهيات يحدث فى وقت مبكر من الحيـاة ، انها لا تتشرب فى لحظة معينة ولا بعملية وحيدة · نحن نتشرب المعتقدات مـن أسـلوب حيـاتنا من آبائنا ومـن أصدقائنا ومدرسينا ، مـن كل الاحتكاكات مع الأشخاص وأيضا مع الأساليب الشعبية والصناعات الانسانية للثقافة التى نحن جزء منها · فنحن نقول عادة أن شخصا قد تشرب ثقافة اذا تكلم لغة مجتمعه واستخدم أساليبهم فى مختلف نواحى الحياة ·

واذا كانت النظم الرائدة هى التى تعطى الثقافة نسق القيم الأسـاسى الذى يعتبر من أهم عناصرها ، فان النظم الرائدة أيضا عندما تصل الى مراكز الغلبة والامتياز ، فان الثقافة تتخـذ بعضا من أحسن وجوه النظم الرائدة عناصرا لها · وعند ذلك تصبح هذه العناصر خارجة عن ضبط النظم نفسها · تلك العناصر تصبح باتساع الثقافة · وتصبح فى هذه المرحـلة ليست مجرد اجراءات فرضتها النظم عـلى الثقافة ، ولكن بالأحرى أخذتها الثقافة من النظم ·

المكان الأول الذى نبحث فيه عن مثل هذه العناصر الثقافية ، هـو بين القيم العليا ، لأن تلك هى العناصر التى نفترض أنها أكثر سهولة فى الانطلاق بحرية من مراسيها الأصلية فى النظم · وأصدق مثل على تلك العناصر التى أخذت مـن النظم وأصبحت باتساع الثقافة ، أى أصـبح عنصر ثقافى نجـده متضـمنا فى حالة أحـد الاجراءات النظامية ، أعنى الاجراءات البرلمانية فى النظام الديموقراطى ـ النظام السياسى يعتبر النظام الرائد فى معظم المجتمعات المعـاصرة ـ فعملية التصويت فى الانتخابات البرلمانية ، أو عند أخذ القرار فى البرلمان ، هو الآن متضمن فى كل الثقافات الغربية ، بل وانتشر منها الى معظم الثقافات فى العالم ، واستخدمت فى مناشط لا يمكن أن يكون لها علاقة بأصولها السياسية ، فأعضاء نـادى رياضى أو اجتماعى أو أعضاء مجلس ادارة بنك أو شركة صناعية عنـدما يناقشون مسألة ثم يجرون عملية تصويت لأخذ القرار سواء بالقبـول أو الرفض ، أفعالهم تلك ليس لها أى علاقة بالعمل السياسى التى تولدت فيه هذه القواعد أصلا · وهذا المثل يفصح عن عنصر من اجراءات نظـام

سياسى انتهى الى عنصر باتساع الثقافة ليست الغربية فحسب بل يكاد ينتشر فى معظم ثقافات العالم ، اذ أصبح يستفاد به فى أى اجتماع لجماعة اجتماعية تهدف الى صياغة قرار ٠

وأيضا تقوم النظم بمهمة أخرى فى اعطاء الثقافة عناصر باتساعها ، فاذا نظرنا الى النظم من زاوية تاريخية نجد أنها تمثل المرحلة الأولى لنمو الثقافات ٠ فالنظم تعتبر المعامل التى تجهز العناصر للثقافة ، فعملها هو معالجة المواد الخام التى تأتى اليها من خارج الثقافة أى من ثقافة أخرى فتجرى عليها عمليات التعديل والتكييف حتى تكون قابلة للاستخدام فى الثقافة من أولها لأخرها ، فهى عملية ترويض أو استئناس للعناصر الوافده من ثقافات أخرى ٠

اذا كانت النظم لها تلك الأهمية فى اعطاء الثقافة عناصرها ، فانه بالمثل النظم وليس كل الثقافة التى يعتمد عليها فى الفعل الديناميكى فالنظم تعتبر وكلاء الثقافة ، لأن الثقافات ككليات لا يكون لها تأثير ٠ فمثلا فى حالة غزو ثقافة لثقافة أخرى ، فان ذلك لا يتم عن طريق الثقافة ككل ، ولكن يتم عن طريق غزو النظم للثقافة الأخرى ، فمثلا فى القرن التاسع عشر عندما غزت الثقافة الغربية مناطق الهند والصين وكل الشرق الأقصى تم ذلك عن طريق النظام الدينى الذى يمثله المبشرون فهم هيئته ، تؤيدهم الكنيسة وهى النظام نفسه وكذلك عن طريق النظام الاقتصادى مثل شركة الهند الشرقية وشركة خليج هدسون ٠ فالنظام الدينى الاقتصادى كانا وكيلين للثقافة الغربية فى غزوها لثقافات الشرق الأقصى والهند والصين ٠ ومن ناحية أخرى هذا ما أعطى كلا من النظامين السابقين ارتفاعا وأهمية فى الثقافة الغربية كأداة لغزو الثقافات الأخرى فى ذلك الوقت ٠

فاذا كانت النظم الاجتماعية تعطى الثقافة عناصرها ومعاييرها وكذلك نسق القيم كما أنها أدواتها فى التفاعل مع المجتمعات الأخرى ، فاذا أضفنا الى كل ذلك تلك الروابط بين المنظمات التى توجد فى المجتمع ويتبعث منها معايير معينة تنظم العلاقات بين تلك المنظمات ، وكذلك الاعتماد المتبادل

أى التساند بين أعضاء المجتمع أثناء أدائهم لأدوارهم فى المجتمع ذلك كله يلقى الضوء على تلك القضية التى عادة تثار بين الاجتماعيين البنائيين والانثروبولوجيين الثقافيين من أن المجتمع والثقافة شيئان متمايزان ، (فالذى لا شك فيه هو أن الانثروبولوجيين الاجتماعيين البنائيين يعتبرون المجتمع هو الحقيقة النهائية التى تجعل من الممكن فهم طبيعة الانسان والنظم الاجتماعية التى تحكم ذلك المجتمع ، بينما يرى العلماء الثقافيون أن الثقافة هى تلك الحقيقة النهائية المتمايزة بذاتها ، وأن المجتمع ليس سوى أداة ووسيلة لقيام الثقافة ووجودها واستمرارها ، انه مجرد ظرف أو شرط ضرورى ـ ولكن ليس كافيا بذاته ـ لوجود الثقافة) (١) · فليس مجرد عدد من الأفراد هو الذى يعطيهم الصفة الاجتماعية ، ولكن ما ينشأ بينهم من عادات وتقاليد وما يصطلحون عليه من القيم والأساليب والوسائل التى يتخذونها فى حياتهم ، أى باختصار الثقافة هى التى تعطى مثل هذا المجتمع صفته الاجتماعية ·

ومن ناحية أخرى يذهب كثير من علماء الاجتماع الى أن كثيرا من سمات الثقافة موجهة للمحافظة على بقاء المجتمع أكثر من اشباع حاجات الأفراد ، كما لاحظت أيضا دروثى لى Drothy Lee (أن كثيرا من علماء الاجتماع يدعون ببساطة أن الهدف النهائى للمجتمع هو أن يحيا) (٢) · ولكن اذا كان على المجتمع أن يؤدى وظيفته بنجاح ، وأن يحيا ويستمر خلال الزمن فلابد من انجاز بعض الشروط · تلك الشروط لو تأملناها لوجدنا مدى التداخل بين مفهومى المجتمع والثقافة ، وانهما كما يقول ايفانز برتشارد (المجتمع والثقافة هما تجريدان

---

(١) د· أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى ، الجزء الأول · الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥ ص ١٨٥ ·

2 — Dorothy Lee : «Are Basic Needs Ultimate», in Jams Fadiman, ed., «The Proper Stady of Man,» The Macmillan Company, New York, 1971 PP. 38—42

مختلفان لشيء واحد) (١) · فما هى تلك الشروط لنتأملها ونكتشف هـذه الحقيقـة ؟

١ ـ يجب أن يشبع المجتمع حاجات الأفراد السيكولوجية والبيولوجية ، ومن ثم تنبعث نظم اجتماعية للقيام بهذه المهمة ·

٢ ـ الأعضاء الجدد ، عادة الأطفال الجدد لابد أن ينشأوا اجتماعيا ، وأن يشربوا القيم الاجتمـاعية ويدربوا عـلى شـغل مراكز فى البنـاء الاجتماعى ، وأن يتعلم الأعضاء الجدد كيف يسلكون كأزواج أو رؤساء أو مرءوسين ، ومن تم بفعل هـذا تستمر تلك المكانات ومعها النسـق الاجتماعى ككل ·

٣ ـ ولابد أن يوجه سلوك أعضاء المجتمع نحو ما هو مرغوب اجتماعيا ، خلال المعايير والجزاءات · فلابد أن يكون لكل مجتمع نظام للضـبط الاجتماعى لينظم الاحتكاكات المختلفة بين أعضاء المجتمع ·

٤ ـ ومن أجـل أن يـؤدى الأفـراد وظـائفهم فى المجتمـع فلابد أن ينظم التفـاعل ، وفى نفس الوقت يـكون قابلا للتنبـؤ به ، فما المعـايير الا توقعات ، وتعريف وتحديد اجتماعى للأفعال الممكنة ، (التعـريف والتحديد الاجتماعى يمد كل ممارس بارشاد حاسم لتوجيه أفعـاله لتتلاءم مع أفعال الآخرين · وتخـدم تلك التحـديدات الاجتماعية فى توضيح الانتظام والاستقرار والاطراد للأفعال المترابطة فى منـاطق واسعة من حياة الجماعة ، فهى منابع السلوك الاجتماعى المؤسس والمنظم ، وهذا هو المقصود بمفهوم الثقافة) (٢) ·

٥ ـ الزام آخر ، هو أن أعضاء المجتمع يشعرون أنهم ينتمون الى جماعة وأنهم مدفوعون ومحركون للعمـل طبقا لقواعد الجمـاعة · تجمـع

---

(١) ايفانز برنشارد ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، ترجمة د · احمد ابو زيد ص ٣٧ ·

2 — Blumer, Herbert : «Symbolic Interaction», Englewood Cliffs, Prentice-Hall, Inc., 1969. P. 71

المعتقدات والقيم يتجه الى الوفاء بهذا الالتزام ، فهى تضفى أهدافا اجتماعية وفردية تعطى معنى الأصل والهدف . وتكسب الخبرات معانى وقيم ·

الاشباع المنظم لحاجات الأفراد ، وتعليم الأعضاء الجدد ، وتشريبهم سمات الثقافة ، والضبط الاجتماعى للسلوك ، وامكانية التنبؤ بالتفاعل ، والاحساس بالانتماء والهدف ، يمكن المجتمع من أداء وظيفته والاستمرار أى الحياة · ومن ثم نرى أن ثقافة المجتمع العامة هى أدوات حياته · فالمجتمع والثقافة شديدا التشابك وهما كوجهى العملة ، فهما مظهران لشىء واحد · ويوضح هوجين Hogbin صعوبة التفرقة بين المجتمع والثقافة ومدى تشابك وتعقد العلاقة بين كل منهما فى قوله (يشير المجتمع الى كل العلاقات التى تقوم بين أفراد المجتمع المحلى ، أما الثقافة فانها تعنى أنماط السلوك المقنن ، وبذلك فان كلا منهما هو وجه لشىء واحد) (١) · وكذلك يوضح كروبر وبارسونز هذه العلاقة المتشابكة فى قولهما (يشير المجتمع للأنساق المنظمة للتفاعل المتبادل بين الأفراد والجماعات ، بينما تشير الثقافة الى أنماط القيم والأفكار وأنساق المعانى الرمزية التى توجه السلوك الانسانى) (٢) ·

ومع ذلك فان حدود المجتمع والثقافة ليست متطابقة · فمثلا القانون الرومانى هو أساس كل من القانون الفرنسى والقانون الألمانى ، ومع ذلك يعتبر كلا منهما مجتمعا منفصلا · وبالعكس بعض نواحى الثقافة قد تفشل فى الانتشار فى كل أنحاء المجتمع · فقد يتضمن مجتمع واحد لغتين أو أكثر كالمجتمع السويسرى حيث توجد اللغة الفرنسية الى جانب كل من الألمانية والايطالية ، وكذلك قد يوجد فى مجتمع واحد معتقدات دينية متعددة مثل الهند ·

---

1 — Hogbin, I. : 'Social Change». Watts, London. 1958. P. 10

2 — Kroeber A. and Parsons, T. : «The Concepts of Culture and Social System» American Sociological Review. October 1958. P. 582.

فالثقافات توجد داخل المجتمعات ، ولكن بعض وجوه الثقافة قد تمتد وراء حدود المجتمع فيشارك فيها أعضاء أكثر من مجتمع ، ومن ناحية أخرى قد توجد بعض أوجه الثقافات لا يشارك فيها كل أعضاء المجتمع ·

طبيعة الثقافة

وهذه النقطة الأخيرة تقودنا الى فكرة الثقافة العامة والثقافة الفرعية ، أى أنه توجد فى المجتمع سمات ثقافية يشارك فيها كل أعضاء المجتمع وهذه تسمى بالثقافة العامة للمجتمع كاللغة العربية فى المجتمع المصرى أو المجتمع السعودى وكذلك كالدين الاسلامى · ولكن يوجد هناك الى جانب هذه السمات العامة سمات خاصة بالجماعات الاجتماعية فأهل الريف لهم عادات وتقاليد تختلف عن أهل الحضر أو أهل البدو ، كما ان جماعة الفلاحين لهم سمات تختلف عن جماعة العمال أو جماعة البدو وهكذا ، وكل هذه الثقافات الخاصة يطلق عليها ثقافات فرعية ، وذلك كله يرجع الى طبيعة الثقافة · تلك الطبيعة التى تجعل من الثقافة أمرا ديناميكيا وليس استاتيكيا · كل هذه الأنماط الثقافية سواء العامة أو الفرعية فى تفاعل دائم · فليست العناصر الثقافية قوالب جامدة ، ولكنها تحمل بذور تغيرها ، فالثقافة ليست أمرا أستاتيكيا · ويعبر عن ذلك أرنولد روز بقوله (لسوف يكون من الخطأ الفاحش التفكير فى الثقافة استاتيكيا ، فهناك باستمرار تراكم وتلف وتعديلات أخرى) (١) · وكذلك يتحدث ماكيفر عن ديناميكية الثقافة وفاعليتها فى التغير الاجتماعى فى قوله (رفضنا للمبدأ الحتمى يعدنا للنظر الى الثقافة كديناميكية للتغير الاجتماعى) (٢) · وفى الحقيقة أن ذلك يرجع الى طبيعة الثقافة ذاتها فهى التى تكشف لنا عما تحتويه من عناصر ديناميكية وهى التى تعطينا فهما عن عملية التغير

---

1 — Ross, Arnold (Edit) : «The Institntions of Advanced Societies». University Minnesota Prees Minneopolis, 1958. P. 4

2 — Maciver and Page : Op. Cit., P. 580.

الثقافى • ويعبر عن هذه الحقيقة ميردوك فى قوله (لا يمكن فهم العملية التى تتغير بها الثقافة دون فهم طبيعة الثقافة) (١) • ويؤكد ماكيفر هذه الحقيقة فى قوله (أنه من الطبيعة الخاصة للثقافة اجراء تغيرات • فمن ناحية ، الثقافة هى تقييم ومن ناحية أخرى أنها تعبير • تتغير التقييمات بالخبرات المتغيرة ، سواء أتت الخبرة باشباع أو لا ، ولكل سن تقييماته الخاصة وتقديره الخاص للأشياء المستحقة للاهتمام ، ويظهر ذلك فى آدابه وفى أشكال تفكيره ، وتلك تتغير مع الزمن ، فما يجذب الآباء لم يعد يجذب الأبناء • وأكثر من ذلك أسلوب التعبير ونموذج الثقافة هو داخليا متغير • ليس هناك أسلوب كامل تماما للتعبير أو يحصل نهائيا على الهدف الذى ينشده ، واذا كان ، مشبعا لوقت ما ، سيأتى وقت متأخر ، جيلا جديدا ، عندما يتوقف عن الاشباع ، وأكثر من ذلك هناك اختلاف عظيم من المصالح الثقافية • فى داخل كل مجتمع مركب هناك اختلاف فى التقييمات والدوافع والمعايير للجماعات الكبيرة والصغيرة المكونة للمجتمع ، الأسر والطبقات والجماعات المهنية والجماعات الدينية ••• الخ) (٢) •

وفى هذه العبارة أفصح ماكيفر عن خصائص الثقافة التى تتفاعل فى اطار المجتمع ، ان الثقافة لها خصائص معينة تتيح لها هذه الديناميكية ، فمن المعروف أن ما يمنح الثقافة عنصرا الاستمرار والتغير هو طبيعة الثقافة ذاتها ، فما يعطى الثقافة استمرارها هى تلك السمات الثقافية المتمثلة فى وحدة المعتقدات الدينية والتقاليد والعادات واللغة والممارسات المشتركة بين أعضاء المجتمع ، تلك السمات يحافظ عليها المجتمع أشد المحافظة ويضع العقوبات على من يخرج عليها ، فهى تعطى المجتمع تكامله وتماسكه ومن ثم استمراره ، فهى المعبرة عن وحدة المجتمع ومن ثم فهى تعطى الثقافة طابعها المميز ومقوماتها الخاصة • وهكذا يمكننا الحديث عن الثقافة المصرية

---

1 — Murdock : Op. Cit., P. 247.

2 — Moclver and Page : Op. Cit., P. 517—518.

أو الثقافة الفرنسية ، فهى سمات رئيسية تسود المجتمع كله وتميزه عن المجتمعات الأخرى ، ولهذا تسمى هذه السمات بالعموميات ٠

ولا يعنى هذا أنه لا توجد سمات ثقافية فى المجتمع غير العموميات ، اذ أن وجودها لا يمنع أن تقوم الى جانبها سمات ثقافية أخرى يتمايز بها كل قطاع من قطاعات المجتمع سواء من حيث المهارة أو المعارف الفنية ، كما فى الجماعات المهنية والجماعات الزراعية ، أى أنه يمكن الحديث عن ثقافة العمال أو ثقافة الفلاحين ، أو قد ينفرد الرجال ببعض قواعد السلوك دون النساء أو الآباء دون الأبناء ٠ تلك السمات هى ما يطلق عليها الخصوصيات فهى التى تؤدى الى ظهور التباين والتفاوت داخل نطاق المجتمع ٠ وهكذا فهناك أنماط متعددة من السلوك فى داخل المجتمع الواحد ، هذه الأنماط من السلوك أو السمات الثقافية توجد متجاورة وكل منها يؤثر ويتأثر بالأخرى فهى فى تفاعل دائم ، ومن ثم تحدث تغيرات هنا وهناك ٠

وخاصة أن العموميات لا تفرض نفسها على جميع أعضاء المجتمع فرضا حرفيا ٠ اذ أنه فى الحقيقة (يمكن التميز فى كل سمة من هذه السمات العمومية بين عدد من البدائل أو الأنماط السلوكية المختلفة التى يمكن تطبيقها فى الموقف الواحد) (١) ٠ ومن ثم فالبدائل وهى الخاصية الثالثة للثقافة تتمثل فى أساليب التفكير والعمل التى تختلف عما اتفق علية غالبية أعضاء المجتمع أى عن عموميات الثقافة ٠ وقد تظهر هذه البدائل على شكل أساليب جديدة فى العمل والتفكير أو أنواع النشاط المختلفة ويعبر عن هذه الحقيقة ميردوك بقوله (التغير فى السلوك الاجتماعى ومن ثم فى الثقافة ، عادة تكون أصوله فى بعض البدائل الهامة فى ظروف الحياة للمجتمع ، أى حادثة تغير المواقف ، ومن ثم يحدث فى ظلها سلوك جمعى ، حتى انه لا تشجع الأفعال المعتادة ، وتفضل عليها استجابات جديدة ٠ ومن ثم يقود ذلك الى استحداث أو تجديد ثقافى) (٢) ٠

---

1 — Hoebel : Op. Cit., P. 173.
2 — Murdock : Op. Cit., P. 249.

وقد تظهر هذه البدائل من داخل المجتمع وهو ما يسمى بالتحدى الداخلى ، وذلك بظهور افكار جديدة أو ثورات اجتماعية وسياسية ، أو قد يكون على شكل اختراعات تكنولوجية نتيجة تطور الفكر وتقدم العلم · وقد تكون تلك البدائل نتيجة لاحتكاك ثقافى مع مجتمع آخر أو هجرة نمط ثقافى من مجتمع لآخر فتتفاعل سمات الثقافتين · ومن هذا التفاعل تنشأ سمات جديدة أى بدائل · (أى انه يمكن التمييز فى كل سمة من هذه السمات العمومية بين عدد من البدائل التى يمكن تطبيقها فى الموقف الواحد) (١) ·

وهكذا ينمى الناس من خبرات الحياة ومن هذا الخضم من التفاعل الاجتماعى ، مجموعة من القواعد والاجراءات لمواجهة احتياجاتهم ، وتلك المجموعة من القواعد والاجراءات مع مجموعة تؤيدها من الأفكار والقيم تسمى الثقافة ·

وعلى أى حال فالتعريف التقليدى لاصطلاح الثقافة الذى صاغه ادوارد تيلر Edward Tylor (الثافة هى ذلك الكل المركب الذى يتضمن المعرفة والاعتقاد والفن والأخلاق والقانون والعادات الاجتماعية والامكانيات التى اكتسبها الانسان كعضو فى مجتمع) (٢) ويمكن أن نضع لها تعريفا بسيطا هو أن الثقافة هى كل شىء يتعلمه ويشارك فيه اجتماعيا أعضاء المجتمع · وعادة يتسلم الفرد الثقافة كجزء من التراث الاجتماعى ، وبدوره قد يعيد تشكيل الثقافة ويقدم تغيرات ، ومن ثم تصبح جزءا من التراث للأجيال التالية · ولكن ما هو ذلك التراث الاجتماعى ؟

التراث الاجتماعى SOCIA HERITAGE

يقسم كثير من علماء الاجتماع التراث الاجتماعى الى ثقافة لا مادية Nonmaterial وثقافة مادية Material و تتكون الثقافة اللامادية من الكلمات والأفكار والعادات والمعتقدات التى يتمسك بها أعضاء المجتمع ويتبعونها ، وتتكون الثقافة المادية من الأشياء المصنوعة مثل

1 — Hoebel : Op. Cit., P. 173.
2 — Tylor, E. : Primitive Culture, 1871, V. 1, P. 1.

الأدوات والأثاثات والمبانى والسيارات وأى مادة طبيعية قد غيرها الانسان لتصبح صالحة لاستعماله • وبعض المصنوعات تسمى artificate

أى مصنوعات انسانية • فى لعبة كرة القدم مثلا ، الملابس الرسمية للعب وأخشاب الهدف وشبكته والكرة والأحذية الخاصة باللعب هى عناصر قليلة من الثقافة المادية • والثقافة اللامادية فى هذه اللعبة تتضمن قواعد اللعب ومهارات اللاعبين ومصطلحات اللعبة مثل حارس المرمى والجناحين الخ • والسلوك التقليدى للاعبين والمشاهدين • وتصبح الثقافة المادية بلا معنى بدون الثقافة اللامادية ، فمثلا اذا نسينا لعبة كرة القدم ننسى الأحذية الخاصة بها ولا تصنع • الحرب العالمية الثانية رغم أنها أكثر الأحداث تدميرا فى التاريخ لم تترك سوى آثارا مادية تدميرية قليلة لأن الناس كانت تحتفظ بالمعارف والمهارات أى الجانب اللامادى من الثقافة والتى استطاع الناس أن يعيدوا بها بناء المدن التى دمرتها الحرب • بينما الأهرامات المصرية لا يمكن اعادة بنائها لأنها قد انفصلت كلية عن الثقافة اللامادية التى أدت الى بنائها • تلك الثقافة التى تتضمن كلا من القيم وطرق البناء التى دفعت الفراعنة الى الرغبة فى بناء مثل هذه الأهرامات ، ولكن اليوم اختفى نسق القيم الذى حفز سلوكهم للبناء • يحب الناس أن يضعوا قيمة كبرى على الأجزاء ذات الأثر الواضح من الثقافة المادية رغم أنه يمكن استبدالها بسهولة ، اذا كانت الثقافة اللامادية نشطة • ونشاط الثقافة اللامادية هذا هو الذى جعل من التراث الاجتماعى دائم الاستبدال أو أسرع فى استبداله لجوانب الثقافة المادية ، ومن ناحية أخرى أدى الى هذا التراكم الضخم من عناصر الثقافة فى التراث الاجتماعى • فمن حياة الكهوف والأدوات البدائية الحجرية المتناهية البساطة فى مطلع الحياة البشرية الى حياة ناطحات السحاب والآلات الالكترونية المتناهية التعقيد ، ومن تلك المجتمعات وحيدة النظام حيث لم يكن هناك الا نظام الأسرة الى مجتمعات اليوم التى لم تتعد فيها النظم فحسب بل وتعقدت أيما تعقيد • هذا التراكم الثقافى لفت نظر علماء الاجتماع ومن ثم توفروا على دراسته ، وهو ما سنناقشه فى الفقرة التالية •

التراكم الثقـــافى
ACCULTURATION

وجه فريق من العلماء فى دراساتهم عن الثقافة مزيد عنايتهم واهتمامهم الى عملية التراكم الثقافى · واعتبروا أن عملية التراكم الثقـــافى تتم عن طريق عمليتين اجتماعيتين ، عملية داخلية أى تتم داخل الثقافة ذاتهـا وهى الاختراع والتجديد ، وعملية خارجية وهى الانتشار الثقافى ، أى تنتشر سمة ثقافية من ثقافة الى أخرى ، وذلك لا يحدث الا اذا حدث احتكاك ثقافى بين الثقافات ، فتقترض كل ثقافة من الأخرى السمات التى هى فى حاجة اليهـا وأطلقوا على هذه العملية اصطلاح الاستعارة الثقافية ·

فبالاختراع يتم انتاج أسلوب جديد فى التفكير والعمل ويترتب على ذلك تغيرات فى الثقافة ، اذ أن عناصر الثقافة متشابكة ومتساندة واذا حدث تغير فى أى عنصر من عناصرها أو اضافة عنصر جديد اليها يكون لذلك انعكاسات على باقى أجزاء الثقافة · وبالانتشار تنتقل هذه السمة الجديدة ، أو احدى سمات ثقافة ما ، الى ثقافة أخرى ، ومن ثم تجرى عملية توطين الســـمة الجديدة وتحدث تغيرات فى الثقافة المستعيرة للسمة ·

ويتحدث كثير من العلماء عن الاحتكاك الثقافى كعملية تنتشر بهـــا السمات الثقافية · فالاحتكاك الثقافى يعتبر عند علماء الثقافة الوسيلة الفعالة فى التغير ، اذ أن المجتمعات التى تعيش فى عزلة لا يتأتى لها الاستعارة من المجتمعات الأخرى وبذلك تصاب بالفقر فى سماتها الثقافية وبالعقم ، ويترتب على ذلك بطء نموها الشديد · ويعزى التطـور الحضارى البعيـــد المدى فى الحضارات التى نمت فى حوض البحر الأبيض المتوسط ثم انتشرت فى أوربا كلها ومنها الى أمريكا الى عملية الاحتكاك بين الثقافات المصرية القديمـة واليونانية القديمة ثم الرومانية ثم العرب ثم مرة ثانية الى أوربا · عملية الاحتكاك المستمرة بين هذه الثقافات هى التى أدت الى استعارة كل من الأخرى، مما أثرى ثقافة كل عن الأخرى وأتاح فرصة أوسع لاختراعات جديدة · كما يعزى تخلف المجتمعات البدائية الى عزلتها ·

وكذلك يرجع تخلف الأمة العربية الى الستار الحديدى الذى ضرب على هذه الأمة فى عصر تدهور الدولة العمثانية حيث لم تتح فرصـــة الاحتكاك الثقافى بين الثقافة العربية والثقافة الأوربية ، وأقفرت حركة الترجمة التى أثرت الثقافة العربية فى العصر العباسى عندما جلبت ثقافة اليونان والرومان، والتى أثرت الثقافة الأوربية عندما ترجمت اليها الثقافة العـــربية العباسية والأندلسية · اذ ليس من الضرورى عند علماء الثقافة أن يتم الاحتكاك بطريق مباشر بين الجماعات ، فهناك حالات كثيرة يتم فيها الاستعارة عن طريق اللغة المكتوبة أو ترجمتها مما أسماه ميردوك (الاستعارة الثقافية عن بعد) (١)

ذلك هو ما دعى كثيرا من العلماء الى الاهتمام بعمليتى الاختـــراع والانتشار واعتبارهما المحركان الأساسيان للتغير الثقافى ، ويعبر ميرل عن هذه الحقيقة بقوله (العنصران الرئيسيان فى التغير الثقافى هما الاختراع والانتشار) (٢) ·

١ ـ الاختراع :

وعن الاختراع يحدثنا أوجبرن قائلا (مفتاح التغير يمكن البحث عنه فى الاختراع أو الابتكار ، وكلمة الاختراع تعنى هنا أى عنصر جديد فى الثقافة أى تستعمل هنا بمعنى أوسع مما عادة تستعمل فيه هذه الكلمة ، (اذ أن الثقافة ككل هى القوة الفعالة فى عملية التغير وهى صنع اختراع) (٣)· ويعرف ميرل الاختراع بقوله (الاختراع هو توليف سمتان أو أكثر ثقافية موجودة أو أنماطا فى شىء جديد يكون أكبر من كمية أجزائه) (٤)· ويعرف جلفيلان الاختراع بقوله

---

1 — Hurdock G. P. «How Culture Change» In Shapiro, H. L. (ed.) «Man Culture and Society» N.Y. Oxford Press. 1956. P. 255.

2 — Merrill, F. E. : «Society and Culture» Prentic-Hall Inc. Englewood Cliffs New Jersay 1963. P. 461.

3 — Ogburn. W.F. : «Social change» Encyclopidia of the Social Science. P. 330.

4 — Merrill : Op. Cit., p. 462.

(ما يسمى اختراعا هاما هو تراكم دائم لتفاصيل صغيرة ، ومحتمل أن لا يكون لها بداية تامة أو نهاية ذات حدود معروفة ، الاختراع هو تطور أكثر منه سلسلة من الانشاء ، وكثير الشبه بالعملية البيولوجية) (١) · كما يعرفه لينبرج أنه أى أسلوب للسلوك واضح الجده يسمى اختراعا · فى الكلام العام عادة يعنى اختراع آلات طبيعية · ونحن نستعمله هنا بمعنى واسع ليتضمن كل أنواع أنماط السلوك الجديد ـ أغنية جديدة ، رقصة جديدة ، أو شكل جديد من الحكومات) (٢) ·

ويلاحظ فى هذه التعريفات أن علماء الاجتماع يركزون على أن اصطلاح اختراع فى العلوم الاجتماعية لا ينطبق فقط على الاختراعات فى الجانب المادى من الثقافة ،ولكنه يتضمن بالضرورة الجانب اللامادى من الثقافة · ويقول فى ذلك ميرل (قد يحدث التوليف بين العناصر الموجودة فى حقل العلاقات الاجتماعية ،والنظم الاجتماعية والبناءات الاجتماعية · هذه التوليفات تعرف بالاختراعات الاجتماعية ، وهى تدور من قانون طلاق جديد الى صيغة الأمم المتحدة) (٣) · وكذلك يقول لندبرج (نظرا لانشغالنا بالعدد الآلية ، تميل كلمة الاختراع فى تعريفها الشعبى لما ينتمى للأشياء المادية · ولكن بالضرورة عملية اختراع نسق جديد لعلاج الفقر أو نسق جديد من المنطق والرياضيات صارت مثل اختراع السيارة والراديو) (٤) ·

ويبدو أن الذى دفع علماء الاجتماع الى ابراز أن كلمة اختراع تتضمن لديهم أيضا الاختراعات الاجتماعية · ذلك أن المخترعات المادية تحيط بنا من كل جانب والآثار الاجتماعية للمخترعات الجديدة هى حولنا فى كل ناحية والأقل اعتبارا ولفتا للانظار هى الاختراعات الاجتماعية · ذلك بالرغم من التغيرات العظيمة للأشكال الموجودة من التنظيم الاجتماعى ، والأشكال المقبولة

---

1 — Gilfillan. S.C. : «The Sociology of Invention» Follet Publishing Co. Chicago 1935. P. 5.

2 — Lundberg, G.A. and Clarence C.S. and Otto N. Larson : «Sociology» Harper and Brothers, Publishers, N. Y. 1958 P. 707.

3 — Merrill : Op. Cit., p. 465.

4 — Lundberg : «Foundations of Sociology», P. 508.

من العلاقات المتبادلة بين الأشخاص · والآلة العظيمة التشابك والتعقد لادارة الأعمال والحكومات ما هى الا اختراعات اجتماعية مثلها مثل المخترعات الميكانيكية · ومثل معظم الاختراعات المادية ، انبعثت المخترعات الاجتماعية من الادراك الملموس لبعض حاجات التكيف ، كما هو الحال فى المخترعات الطبيعية الحديثة ·

والمخترعات الاجتماعية أولا تنفذ رمزيا بواسطة تجمع البيانات المتعلقة فى شكل المعرفة السابق وجودها عن الموقف الذى يواجه المجتمع والموضوع الذى ينشد انجازه · وكما يحول المخترع الطبيعى افتراضاته الى رسوم ، كذلك المخترع الاجتماعى يحول افتراضاته الى خطط ثابتة ، ودساتير ، وقوائم تشريعية ،ونظريات اجتماعية ، وكما يبنى المهندس الانشائى الآلة أو الاختراع التطبيقى ، كذلك الاختراع الاجتماعى يسن فى قانون أو يستخدمه المجتمع الذى قرر تجربته ، اذ مثل ما يوضع الاختراع الطبيعى فى العمل يوضع الاختراع الاجتماعى ليؤدى وظيفته التى عمل من أجلها ·

كما أن هناك علاقة وثيقة بين الاختراعات الاجتماعية والطبيعية ، اذ أن الاثنين عنصران ثقافيان ومن ثم متشابكان ومتساندان يؤثر كل منهما فى الآخر ، الا أنه من المألوف أن يسترعى انتباهنا آثار وانعكاسات الاختراعات الطبيعية مثل الراديو والتليفزيون والطائرة ، أكثر من الظروف والعلاقات الاجتماعية · ولكن انتشار اختراع اجتماعى مثل المذهب الاشتراكى كان له أبعد الأثر على العلاقات الاقتصادية والسياسية فى داخل المجتمعات التى طبقت هذا الأسلوب ، وأكثر من ذلك على علاقات هذه المجتمعات مع المجتمعات التى تدين بمذاهب سياسية أخرى مما يتضح أن مثل هذا الاختراع لم يكن له أثر فقط على العلاقات الاجتماعية فى داخل المجتمع بل امتدت آثاره لتشكل وتغير من العلاقات بين الدول · واللغة أيضا هى اختراع اجتماعى هام بل وتعتبر أهم الاختراعات الانسانية سواء الطبيعية أو الاجتماعية ، فهى التى أتاحت نقل خبرة الانسان خلال الأجيال المتعاقبة ، وجعلت من عملية التراكم الثقافية عملية فعالة فى التجهيز للاختراعات بنوعيها ، وخاصة الرموز

الأكثر تجريدا مثل المستعملة فى العلوم الرياضية التى أتاحت ليس فقط نموا ضخما فى العلوم بل وأيضا جعلت من الممكن نقل الخبرات الى مناطق مختلفة اللغات ، ومن ثم مهدت للعمل الجمعى فى حقـــل الاختراع · وهكذا تعتبر القاعدة الأساسية لأغلب المخترعات الطبيعية الحديثة ·

وان كان بارنت فى كتابه التجديد Innovation لم يفرق بين كلمة التجديد والاختراع واستخدام كلمة التجديد لكل من الاختراعين المادى والاجتماعى اذ يقول (عندما يأخذ التجديد مكانه · هناك صلة وثيقة أو انصهار لعنصرين أو أكثر لم يلتصقا قبل ذلك بهذا الأسلوب · وهكذا تكـون النتيجة كل متميز ومختلف كيفيا ويكون الاتحاد تأليفا أو تركيبا حقيقيا ، أى أن الناتج هو وحدة ذات خاصية وميزة مختلفة كليـة عن مميزات سوابقها الفـردية) (١) · فان ميردوك قد جعل من الاختراع سواء الاجتماعى أو الطبيعى أحد أنواع التجديد ، واستخدم كلمة التجديد لتشمل أنواعا أخرى · والتجديد المسمى عند ميردوك اختراعا هو (عندما يتضمن تجديد نقل عنصر من السلوك من محتوى موقف الى متن موقف آخر ، أو تركيبه فى موضوع جـديد ، يقال له اختراع ، عادة تكون بعض درجات الانشاء موجودة ، معظم التجديدات التكنولوجية هى من هـذا النمـوذج) (٢) · وهـو فى هـذا التعريف يتفق مع بارنت فى معنى الاختراع ·

ولكـن ميردوك يذهب باصطلاح التجـديد الى معانى أوسع · أو هى بالأحرى تفصيلا أكثر لمعنى الاختراع · فيطلق ميردوك اصطلاح التجديد على عملية يسميها تباين Variation(يقال للتجديد أنه تباين عندما يقدم تعديلا طفيفا لسلوك معتاد موجود من قبل ، تحت ضغط الظروف المتغيرة تدريجيا · عادة التطـور البطىء فى أشكال الأشياء المصنوعة عبر الزمن يمثـل تراكم الاختلافات ، القمصان قد تقصر أو تطول ، الاحتفالات قد تزاد عن قصـد ، تحدث التغيرات فى كل الثقافات فى كل الأوقات · الاضافات الفردية للتغير هى

---

1 — Barnett, H. G. «Innovation» McGrow-Hill Book Company Inc. New York, 1953. P. 181.

2 — Murdock : Op. Cit., P. 251.

عادة بطيئة لدرجة غيـر مدركة ولكن تراكمها يؤثر عبر فتـرة طويلة وربما يتضاعف) (١) • فى هذا التعريف يقصد ميردوك تلك التغيرات الطفيفة وخاصة التى تحدث فى جانب من الثقافة ليس له تاثير اجتماعى كبير محسوس ، وعلى أى حال انه نوع من الاختراع اذ أنه يتألف من امتزاج عنصرين ممثلين فى تقصير القميص أو اطالته ، القميص عنصر ثقافى أدخل تعديل عليه ، حقيقة انه لم ينشأ عنه شىء آخر يختلف تماما عنه ، الا أنه أضيف اليه عنصر ثقافى آخر هو الذى أدى الى ذلك التحوير فيه ، قد تكون فكرة اقتصادية لخفض تكاليف القميص فى حالة تقصيره مثلا • وهذا يشبه تماما التجديدات التى أدخلت على السيارة أو الطيارة فهل الطيارة ذات المحركات العادية بعد ادخال التعديل الذى جعلها نفاثة أو أسرع من الصوت ألا يسمى هذا اختراعا • ان الاحتفاظ باسم الطيارة أو القميص بعد ادخال التغيرات عليه هو من سبيل الاختصار فى اللغة ، اذ كان يمكن اضافة اسما آخر للقميص بعد تقصيره مثلا أو استعماله خارج البنطلون كل هذا أدى الى تغيرات فى الوظيفة وفى اقتصاديات مستعملية ، بل والى عادات جديدة لم تكن موجودة من قبل •

وينتقل ميردوك الى وصف تجديد آخـــر يطلق عليـــه اسم التجريب Tentative ، ويفرق أيضا بينه وبين الاختراع قائلا (لايشبه النموذج السابق الذى هو مجرد تعديل أو اعادة توليف العناصر الموجودة فعلا (الاختراع) ، التجريب قد يؤدى الى نشأة عناصر تظهر قليلا من الاتصال مع الماضى • ويحدث ذلك بميكانزم يسميه السيكولوجيون المحاولة والخطأ ، قد يحدث التجريب فى أى موقف يثبت فيه عدم ملائمة العادات القائمة ، ولهذا يكون لدى الأفـراد دوافع قوية تجعلهم يحاولون اخراج أساليب أخـرى من السلوك فى سبيل البحث عن حل مناسب لمشاكلهم انهم عادة يحاولون أولا اخراج عـدد من المتغيرات أو التباينات ، واعادة توليفها للاستجابات المعتادة الموجودة ، ولكن اذا فشل كل هذا فانه يدفعهم الى سلوك عشوائى ، وفى مجراه قد يقعون صدفة على استجابة جديدة تحل المشكلة ، ولهـذا تؤسس على أنها عنصر ثقافى

---

1 — Ibid, p. 250.

جديد ، وتقود الأزمات خاصة آلى التجريب • ففى المجاعات مثلا يحاول الناس تجريب كل الأنواع التى لم ياكلوها من قبل ، واذا أثبت بعضها فائدة وطعما قد يضيفونها الى قائمة طعامهم • ويقود الوباء الى دواء جديد ، والقلق الاجتماعى يقود الى الثورة • عندما الاكتشاف بالصدفة يقود الى تجديد ثقافى ، العملية عادة هى من نوع التجريب) (١) •

وفى الحقيقة عملية التجريب أو المحاولة والخطأ هى أيضا نوع من الاختراع باستخدام مفهوم بارنت ، فالمجتمع الذى يحاول التجريب ، هو يحاول التجريب ليس من فراغ ولكن بالضرورة من بين العناصر المتاحة له فى البيئة ، مثل فى حالة الطعام ، فليست المجاعة هى التى ادت الى هذا التجديد ولكنها دافع ، اما الذى أحدث التجديد فعلا هو اضافة عنصر جديد أو أكثر الى هذا النبات أو ذاك مما أخرجه من شكله الأول غير القابل لتناوله الى شكل جديد أو عنصر جديد قابل للتناول • ولا يجد لاندبرج مانعا فى تسمية هذا النوع من الاكتشاف بالصدفة أو المحاولة والخطأ أن يسميه اختراعا فيقول : (كثيرا من المخترعات المبكرة كانت بدون شك بالصدفة من التحسس عن طريق المحاولة والخطأ ، فاذا ما أصبح نوع واحد من التحسس ناجحا نسبيا ومرغوبا ومشجعا ومن ثم فيكرر وينقل • ولو أن الاكتشافات والاختراعات بالصدفة ربما تحدث فى كل مراحل الثقافة ، مثلا عندما يعمل عالم على شىء ما ولكن بالصدفة يكتشف شيئا آخر) (٢) •

وفى الحقيقة انه من الصعب وضع تمييز قاطع بين اصطلاحات الاكتشاف والاختراع والتجديد • فالاكتشاف يمثل ادراكا للعلاقات بين عناصر لم تكن معروفة أو مفهومة من قبل • ولقد يكون البحث عن هذه العلاقة عمدا ، أو وجدت بالصدفة • ومن ناحية أخرى الاختراع هو توليف عناصر معروفة فى شكل جديد • ومن ثم يعتبر الاكتشاف أساسيا للاختراع ، طالما لابد أن يكون لدى الانسان معارف ومهارات معينة عن الأشياء والمواقف والناس ، قبل أن يكون لديه القدرة على وضع معارفه ومهاراته فى العمل من أجل انتاج شىء جديد •

---

1 — Ibid, P. 252.

2 — Lundberg and others : «Sociology, p. 707.

وقد يعتمد اكتشاف حقائق جديدة أو علاقات جديدة على اختراع طرق جديدة في التفكير والعمل • ومن ثم فمن الخير اعتبار أن اصطلاح الاختراع يقوم مقام كل من اكتشاف بعض الحقائق والمبادىء أو صنع أنماط جديدة • وهكذا يقرب مما انتهى اليه رالف لنتون Ralph Linton ، وهو يشرح اصطلاح الاختراع بقوله (أولا : يمكن شرح الاختراع بتلك الأشياء مثل اكتشاف استخدام النار ، واكتشاف الأشعة فوق البنفسجية ، واختراع حروف الهجاء اللفظية ، وصهر خام الحديد ، والصفر والأعداد بالناقص وحساب التفاضل • وثانية : الاختراعات التى تعمل على تحسين أو تعديل الاختراعات الأخرى مثل ادخال النقل الاوتوماتيكى فى السيارة) (١) •

وعلى أى حال فان جميع أنواع الاختراع كما رأينا تعتمد أساسا على عناصر الثقافة الموجودة فعلا فى ثقافة مجتمع ما • فالاختراع لا يأتى من فراغ وفى ذلك يقول بارنت : لا يقفز أى تجديد من لا شىء لا بد له من سوابق ومقدمات وهذه دائما يمكن تتبع آثارها) (٢) • ومن ثم فزيادة عناصر الثقافة تؤدى الى زيادة الاختراع • تلك الحقيقة هى التى لفتت علماء الاجتماع الى أهمية عملية التراكم الثقافى ، أى مدى توفر ونمو عناصر الثقافة • وفى ذلك يقول لندبرج (لقد اقترحنا أنه فى كثير من المناسبات نمو الثقافة هو للمجتمع كمثل التعليم للفرد ، بمعنى ، كليهما تراكم ، تراكم مستمر للخبرات) (٣) • وهذا ما يفرق بين المجتمعات المتخلفة والمجتمعات المتقدمة فى قدراتها على الاختراع والتجديد ، فمجتمعا مثل قبائل الهنود الحمر فى أمريكا أوزنوج أواسط افريقيا ليست لديهم العناصر الثقافية التى تتيح لهم اختراع آلة طباعة بالتصوير مثلا ، أو اختراعا اجتماعيا كتكوين نظرية عن حكومة عالمية • ونفس الكلام يمكن أن يقال عن أسلافنا الأوائل من مئات السنين • ويعبر بارنت عن هذه الحقيقة

---

1 — Ralph Linton : «The Study of Man» Appleton-Century» Crofts, Inc., New York 1936. PP. 316—317.

2 — Barnett : Op. Cit., p. 181.

3 — Lundburg : Op. Cit., P. 711.

بقوله (انشتين كان لا يمكنه ان ينمى نظريته عن النسبية لو انه كان يعيش فى العصر الحجرى · وأيضا كان لا يمكن عمل القنبلة الذرية فى أيام نيوتن ، وكقاعدة النمو يقدم المواد لنمو أكثر) (١) ·

وتزايد الاختراعات نفسها تعتبر عملية تراكم ثقافى ، فكلما زادت المخترعات زادت المادة المتاحة للاختراع · ويعبر أوجبرن عن هذه الحقيقة بقوله (الاختراعات المفيدة تميل الى التجمع ·· ان ميل الاختراعات الى التجمع يؤدى الى زيادة فى عناصر الثقافة الموجودة التى ربما تؤدى الى انشاء اختراع جديد ، ومن هنا كانت الزيادة فى الاختراعات · ان عملية التجمع للاختراعات لا تعتبر فى حد ذاتها مقدارا أكبر من التغير ، بل تعتبر تغيرا اجتماعيا أكثر سرعة) (٢) · ومن ثم فتنوع الاختراعات وتنوع الوسائل الفنية والآلات المتاحة فى الثقافة تزيد من فرص الاختراع · (ودلت البحوث على أن الاختراع يقوم على ثلاثة عوامل ، الأول ، وجود العناصر الضرورية لاختراع جديد ، طالما أن الاختراع هو شىء جديد يعمل من عناصر موجودة ، فمن ثم يتضح أنه من الضرورى وجود العناصر المكونة قبل امكان الاختراع ، والامدادات من العناصر الكونية ـ الاختراعات والمواد ـ هى عامل فى انتاج الاختراعات الجديدة) (٣) ·

كما أن حالة المعرفة ومدى انتشارها فى بيئة المخترع أو فى عصره تسمح بطرق مختلفة ومتنوعة للبحث وانتاج مزيد من المخترعات · (وفى بعض الأحيان تتعلق مسالة امكانيات منابع الاختراع بالتصورات العقلية للمخترع · قد يكون أفقه الثقافى محددا بالمعرفة الموجودة فقط فى مجتمعه ، أو ربما تمتد الى ما وراء ذلك لتشمل المعارف الموجودة فى مجتمعات أخرى فى انحاء العالم ، ويمكن القول أن سهولة وامتداد الاتصالات تؤثر فى تراكم الأفكار ، وعن طريق تكوين وسائل اتصالات جيدة يصبح هناك امكانيات أكبر لتكوين منابع أكثر للتصور العقلى) (٤) ·

---

1 — Barnett : Op. Cit., P. 40.
2 — Ogburn : «Social Change» Encyclo. P. 380.
3 — Ogburn and Nimkoff : «Hand Book of Sociology» P. 543.
4 — Barnett : Op. Cit., P. 40.

ومن ثم فان المجتمعات المفتوحة فكريا تساعد على تراكم الأفكار مما يؤدى الى زيادة الاختراعات سواء المادية أو الاجتماعية ، والعكس صحيح ، بمعنى أن المجتمعات التى لا تشجع الحرية الفكرية وتشجع التكتم والسرية أو تقطع حرية سريان الأخبار ، أو تجعل من التساؤل عن المعارف حقا خاصا للقلة المختارة ، اما رسميا أو عن طريق غير مباشر نتيجة لامتياز اقتصادى أو سياسى أو أسرى أو من أى نوع آخر ، كل ذلك يحد من الأفق الثقافى لأعضاء المجتمع ، ليس فقط فيما يتاح لهم من عناصر داخل مجتمعاتهم بل وأيضا المعرفة عن أفكار المجتمعات الأخرى مما يؤدى الى عقم المجتمع وتخلفه · (ان مجموعة من الظروف ربما تكـــون عظيمة التشجيع على التعلـم من ظروف أخرى ، فهذه الظروف المشجعة تكون أكثر ملاءمة لنمو الثقافة والاختراعات ومن بين الظروف الهامة المشجعة للاختراع ، زيادة ما يعرفه الفرد حاليا . وسهولة تعلم شىء أكثر ، وبالمثل ، ثقافة ذات نمو عال متقن تصبح أكثر احتمالا لانتاج اختراع هام عما عليه الحال فى ثقافة بسيطة غير نامية) (١)· (وحقيقة أن بعض الناس لديهم اختراعات كثيرة وآخرين ليس لديهم ، فالأهمية هى لدرجة الامدادات الثقافية فى كل من المجتمعين · فالهنود الأمريكيون مثلا فى حاجة شديدة للدواء العلمى لأن معدل الوفيات عال جدا عندهم ، والأوبئة تكاد تفنيهم وأطباؤهم يعملون بشدة لحل المشكلة ولكن ليس لديهم الامداد الثقـافى) (٢) ·

وفى الحقيقة ان الدعامة الأولى لعمليـة الاختراع هى العناصر التى أعدتها الثقافة لهذه العملية وتتمثل خطورة هذا العامل فى أنه خارج عن ارادة الأفراد ، فهم يولدون فيجدون عناصر ثقافتهم على ما هى عليه بغض النظر عن رغبات الأفراد أو مجهوداتهم ، اذ كلنا نبتدىء بمجموعة من الأفكار والأشياء والسلوك التى تجمعت وتكاملت بواسطة أسلافنا من أمد طويل . صنعتها الظروف التى أحاطت بالمجتمع سواء من قوى داخلية أدت الى عـدم

---

1 — Lundberg : «Sociology» P. 712

2 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., p. 544.

تراكم الأفكار كما حدث فى أوربا فى العصور الوسطى عندما حجرت الكنيسة ، وساعدها الملوك والأمراء ، على عقول المجتمعات الأوربية ولذا سميت بالعصور المظلمة ، أو ظروف خارجية فرضت على المجتمع فقطعت اتصاله بالعالم الخارجى ، ومن ثم عدم تراكم الأفكار كما حدث للأمة العربية فى نهاية العصر العثمانى ومصر بالذات ابان الاستعمار • حقيقة أن كلا منا يستطيع أن يصنع تعديلا طفيفا فى الوسط الثقافى الذى يعيش فيه • ولكن مدى هذا التعديل وأهميته مرتبط بمدى توفر العناصر ، ورغم ذلك قد يقال ان بعض الأفراد قد يحدثون تغيرات هامة ، ولكن التغيرات الهامة تكون أولا وبالضرورة حدثت فى تراكم العناصر الثقافية لديهم مثل ما حدث عندما اتيح ـ رغم الاستعمار ـ لبعض أعضاء المجتمع المصرى مثل محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد الاتصال بالثقافات الخارجية وعادوا للبلاد ، فأحدثوا اختراعات اجتماعية مثل انشاء الصحف والمجلات والدعوة الى الديموقراطية ، مما كان له أثر بعيد فى تراكم الأفكار لدى الشعب المصرى وأعده للاستقلال •

تلك النقط تقودنا الى فكرة المخترع العبقرى فى الثقافة المادية واللامادية على السواء التى يصر عليها بعض علماء الاجتماع مثل بارنت فيقول (الباعث الى كل فكرة جديدة أو أسلوب جديد هو دائما منسوب لفرد معين) (١) • والغريب أن بارنت حلل عملية التجديد الى أربع عمليات الأولى وهى تراكم الأفكار ، والثانية تكاثف الأفكار والثالثة التحام الأفكار والرابعة المشاركة فى المجهودات ويصر فى العملية الثانية وهى تكاثف الأفكار على فكرة الفرد المخترع فيقول (الأفكار لا تمتزج أو تعيد ترتيب نفسها • هذه العملية يجب أن تأخذ مكانها فى عقل فرد ما) (٢) • ثم يعود فى العنصر الثالث فى عملية التجديد وهى المشاركة فى المجهودات ويضيف عنصرا فى هذه المرة اجتماعيا ، اذ أنه جعل من عملية المشاركة فى المجهودات ذات أثر بالغ فيقول (امكانية نمو فكرة جديدة تكون مرتفعة وعظيمة اذا عدة أشخاص تلقائيا وتعاونيا

---

1 — Barnett ; Op. Cit., P. 39.
2 — Ibid., p. 41.

أظهروا نفس الاحتمال ، ان المشاركة فى المجهـــودات ليست فقط توفق بين تكاثف الأفكار لعديد من الأفراد ولكن أيضا تزيد من فرص امكانية وصـول أحدهم الى حل لمشكلتهم العامة) (١) ٠

والعجيب أنه يقرر أن عملية المشاركة فى المجهودات نفسها عنصر ثقافى فيقول (المشاركة فى المجهودات مثل تراكم وتكاثف الأفكار ليست ظـاهرة طبيعية اذ انها لا توجد عشوائيا أو حيويا انما هى تأثير وتنميط ثقافى) (٢) ٠ وهو فى هذه الفقرة يعترف أن تراكم وتكاثف الأفكار هى ظاهرة اجتماعية ، أى أن تكاثف الأفكار لا يتم سيكولوجيا ولكن اجتماعيا ، أى أن المجتمـع هو الذى يتيح للأفكار أن تتكاثف فى عقول الأفراد ، فليست عملية فرد عبقرى ولكن عملية اجتماعية ٠ ويوضح ذلك أوجبرن فيقـول) انه فى السكان من نفس الجنس هناك عدد كبير من الأشخاص يرثون الكفاءة الكافية ليـكونوا مخترعين ٠ وبالرغم من ذلك فان عدد المخترعين صغير ٠ ويرجع الاختلاف الى حقيقة أن كل الأفـراد ذوى الكفاءة الموروثة لم يدربوا على الاختـراع ولا المجتمـع يشـجع الاختراع عند كل الجزء الـذى تدرب ٠ وهـكذا فى الانثربولوجيا ، هناك عدد من البحاث قليل جدا الذين يصلون الى اكتشافات علمية ٠ وان كان هناك عدد كبير من الأشخاص الوارثين لقدرات عقليـة كافية ، ولكن الوقت والمال المطلوب لانتاج دكتـور فلسفة فى الأنثربولوجيا يخفض العدد ، وأن الحاجة الى الانثروبولوجيين هى نسبيا قليلة حتى أن المجتمع سوف لا يساعد الا قليلا فقط (٣) ٠

ومن ثم يتبين أن هناك قوى اجتماعية هى التى تحدد تكاثف الأفكار ٠ ويبدو أن ميل بارنت الى تفسير الظواهر الاجتماعية بالمصطلحات السيكولوجية أدى به الى التركين عـلى الاختراعات التى تطورت بالثقافة الانسانية فى مراحلها الأولى حيث يمكن اسنادها عقليا الى افراد نظرا لبساطتها وعـدم تعقـدها ٠

---

1 — Ibid., P. 43.
2 — Ibid., P. 43.
3 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., P. 546—547.

وعندما وصل بارنت الى المخترعات الحديثة وتشابكها وتعقدها أضاف عنصر المشاركة فى المجهودات ، وحصرها أيضا سيكولوجيا فى عدد معين من الأفراد الموهوبين (الأسس الثقافية أساسية للاختراع ولكن بدون الأفراد الموهوبين لن تعمل اطلاقا التوليفة بين العناصر الثقافية الموجودة) (١) ٠ ونحن عندما نرفض فكرة العبقرية والموهوبين لا نغض من أهمية القدرة العقلية ، ولكن ما نقول به هو النظر الى هذه القدرة العقلية نظرة اجتماعية وليست سيكولوجية ٠ فالقدرة العقلية من وجهة النظر الاجتماعية هى عمل اجتماعى أكثر منه سيكولوجى عندما نتحدث عنها فى علاقاتها بالاختراعات٠ فأفلاطون وأرسطو وغيرهم من فلاسفة العصر القديم قد نموا نظريات فى الفلسفة تدل على عبقرية فائقة الا أنهم لم يستطيعوا اختراع دواء مثل البنسلين ، لأن عناصر هذا الدواء لم تكن موجودة فى البيئة الثقافية لهم ٠ ويعبر أوجبرن عن هذه الحقيقة بقوله (من الواضح أن القدرات المكتسبة تتغير بشدة فى العصر الحديث من زمن لزمن ، فمنذ ٣٠٠ سنة لم نكن نعرف شيئا عن الكهرباء والآن قدراتنا فى الكهرباء عظيمة ومدهشة ٠ هذا الاختلاف فى القدرات المكتسبة خلال السنين نشأت عن الاختلاف فيما نتعلمه وخاصة فى ثقافتنا ٠ أليس اذن التغير فى القوى الثقافية هو الذى يسبب التغير فى امدادات الرجال العظام من قرن لقرن ، أكثر من القوى الفردية) (٢) ٠

وغنى عن البيان أننا غير معتادين أن نرى القوى المسببة التى تميز الأعمال الكبيرة ، ونوعا ما نرى الأعمال كنتائج لأعمال الأفراد دون تتبع لأسباب هذه الأعمال ٠ فاكتشاف سطح القمر لا يمكن أن ننسبه الى رواد الفضاء ولا حتى الى مخترع المركبة الفضائية ولا الى أى قدرة عقلية شخصية سيكولوجيا ، فالقدرات العقلية الخارقة كانت موجودة ، والقمر منذ آلاف السنين شغل عقول الانسانية ، وكذلك فكرة الوصول اليه ، ولكن

---

1 -- Barnett : Op. Cit., P. 10.

2 -- Ogburne : «Technology Causes Socialchange Op. Cit., P. 14.

لم يتيسر ذلك • فالتغير فى هذا الموقف من الأحرى أن ينسب الى النمو فى العناصر الثقافية التى مهدت لهذا الاكتشاف ، فالقدرة العقلية الحديثة بما زودت به من عناصر ثقافية وبما اكتسبته من التراكم الثقافى استطاعت أن تحقق فكرة الوصول الى القمر • فالتغير هنا هى العناصر الثقافية ، أما القدرة العقلية فهى ثابتة تقريبا • (انه من الضرورى التمييز بين الكفاءة العقلية الموروثه والقدرات المكتسبة) (١) • (فاختراع القارب البخارى ينسب الى الامريكى روبرت فلتن ، وأن كان هناك فى نفس الوقت ستة آخرون اخترعوا القارب البخارى • فان لم يكن وجد روبرت ، لكان أخترع القارب البخارى حتى لو لم يوجد أيضا الستة المخترعون السابق الحديث عنهم اذ ما دام هناك حاجة الى مثل هذا القارب ، وطالما يوجد القارب والبخار والحاجة الى قارب يسير بدون الاعتماد على الريح ، أو ضد التيار ، هذه الحاجة ستدفع الى اختراع القارب• وعلى هذا فان من الأنسب أن ننسب القارب البخارى الى اختراع الآلة البخارية لا الى رجل عبقرى) (٢) •

فى المثل السابق ، أوجبرن ، الى جانب رفضه ارجاع الاختراع الى فرد معين ونسب ذلك الى تغير العناصر الثقافية أضاف عاملا آخر وهو الحاجة الى الاختراع كقوة اجتماعية دافعه الى الاختراع ، وهو يؤكد هذه الحقيقة فيقول (فالحاجة كما يقال هى أم الاختراع ، فليس كل الأفكار الموجودة فى المجتمع تدعونا الى النظر اليها والتمعن فيها ، ولكن هناك نوع معين من هذه الأفكار وهى التى تتصل بشىء نحن فى حاجة اليه • هذه الأفكار وحدها هى التى تجذب انتباهنا اليها • وأن الحاجة أو الضرورة ليست فى كل الأحوال قادرة على انتاج اختراع ما • طالما لم تكن موجودة المواد التى تمكننا من انتاج الاختراعات فالرجل البدائى كان فى حاجة ماسة الى العلاج الطبى العلمى ولكنه لم يوفق ولم يصل الا الى اكتشافات قليلة نادرة

---

1 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., P. 546.
2 — Ogburn : «Technology and Social Change» Op. Cit., P. 15.

فى هذا الميدان) (١) · ولكن ميرل يرفض هذه الحاجة كقوة من القوى الدافعة على الاختراع وليس عنده الا توفر العناصر الثقافية كعامل على الاختراع فيقول (يقدم التحليل العام رأيا بأن الأقوال الشعبية تقول ان الحاجة أم الاختراع ، هذه لابد أن تتعدل أو أن تنبذ كلية · حقا ان الحاجة فعلا تعطى دفعة للاختراع · وتطور القنبلة الذرية خلال الحرب العالمية الثانية هو مثل مشاهد لهذه العملية · ولكن الرومان فى مواجهة القبائل البربرية كانوا فى حاجة ماسة الى هذا السلاح ، واضح أن الحاجة كانت عند الرومان ، ولكن ليس الأساس الثقافى الذى يمكنهم من الاختراع · كان لا يمكن انتاج القنابل الهيدروجينية والذرية بدون الانجازات التى عملت فى العلوم الطبيعية التى تميزت بها السنوات الأخيرة من القرن الحالى) (٢) ·

ولكن لندبرج يقف موقفا معتدلا ، فهو يؤيد أهمية الحاجة الاجتماعية من ناحية ، ومن ناحية أخرى يرى انها مقيدة بامكانية عناصر الثقافة فعنده (طبيعة الثقافة الموجودة ، مشتملة على قيم واهتمامات الناس سوف تحدد طبيعيا النماذج الأساسية للاختراعات المحتمل حدوثها · فالاختراعات التى يبدو انها لا تشبع أى حاجات مشعور بها محتمل أن لا تظهر او لاتستخدم اذا ظهرت · ومن ناحية أخرى مبدأ أن الحاجة (أم الاختراع) يجب أن لا يقبل بدون تحفظات هامة · الحاجة الى امداد غذائى أكثر ملاءمة ، والى السفر أكثر سرعة وبأقل الوسائل جهدا ، والحماية ضد الأمراض الوبائية ، واضح أنها وجدت لعدة قرون بدون تقديم أسباب كافية للاختراعات التى اشبعت أخيرا هذه الحاجات · فى كلمات أخرى ، لا يمكن للاختراعات أن توجد ، بغض النظر عن الحاجة ، حتى توجد فعلا فى الثقافة عناصرها الضرورية(٣) ·

---

1 — Ogburn : «Social Change» Encyclop. P. 331.

2 — Merrill : Op. Cit., P. 1. 464—465.

3 — Lundberg : Sociology P. 714.

والحقيقة أن الحاجة الاجتماعية تمثل احدى القوى الاجتماعية المحركة والدافعة على الاختراع اذا توفرت عناصر الاختراع المشبع لتلك الحاجة • بل يبدو أن الحاجة لها دور أكبر من ذلك ، اذ أنها تعمل على انشاء العناصر الثقافية اللازمة للاختراع فهى تظل تحرك القدرات العقلية نحو تحقيق اشباع تلك الحاجة ، ومن ثم تعمل على تراكم العناصر الثقافية حتى تصل الى الدرجة الكافية • اذ أننا لو سلمنا بأن الحاجة الاجتماعية لا تعمل على الاختراع الا اذا وجدت العناصر الثقافية ، فان هذا يعنى الغاء الارادة الانسانية وبالتالى الغاء الاختراعات الموجهة نحو أهداف معينة • وبذلك يظل الاختراع تحت مفهوم الصدفة فقط ، وهذا أمر تدل على بطلانه معظم المخترعات الحديثة المقادة فى معامل التجريب نحو تحقيق فروض علمية بغية تحقيقها •

وغنى عن البيان أن اصطلاح الحاجة الاجتماعية يتضمن أن هناك موقف من سوء التكيف أى أن هناك أسلوبا فى التفكير أو العمل أصبح غير مشبع ، ومن ثم نشأت الحاجة الى اعادة التكيف ، أو فى كلمات أخرى أن هناك حالة من اللاتوازن ، ومن ثم يحدث فى النسق تلك التوترات التى تدفع الى بذل الجهود لاعادة التوازن الى النسق • وتظل هذه الجهود تبذل سواء عن طريق محاولة اعادة التوليف بين عناصر الثقافة الموجودة ، أو اكتشاف عناصر جديدة لم تكن موجودة عن طريق المحاولة والخطا • المهم أن الحاجة الاجتماعية تظل تعمل كمحرك ودافع لاعادة التكيف لاحداث تكيف أسهل وأيسر ، ومن ثم ازالة التوتر واعادة التوازن ، فاذا نجحت الجهود فى الوصول الى التوليفة الجديدة أو اكتشاف العنصر الجديد وحدث الاشباع سمى هذا اختراعا •

وليس معنى هذا أننى أقول بحتمية الحاجة الاجتماعية وأنها أم الاختراع كما ذهب الى ذلك أوجبرن ، ورفضها كل من ميرل ولندبرج وبارنت ، انما ما قصدت اليه هو توضيح أهمية الدور الذى تلعبه الحاجة كقوة اجتماعية فى انشاء الاختراعات ، تماما مثل أهمية العناصر الثقافية فى

هذه العملية · وأن توفر أحدهما دون الآخر لا يساعد على نشأة الاختراعات ، ولكن ازدياد ضغط الحاجة الاجتماعية قد يوحى بانشاء العناصر الثقافيـــة أو التوليف بينها وبالمثل توافر العناصر الثقافية يزيد من فرص الاختراع ، ومن ثم فتوفر كليهما يسرع بعملية الاختراع ·

(ب) ـ الانتشـــار Diffusion

والعملية الرئيسية الثانية التى اهتم بها معظم علماء الاجتماع عملية الانتشـــار اذ (ليس هنـــاك مجتمـــع ثابت حقيقة هذه الأيام بسبب انتشـــار السمات الثقافية) (١) · وعملية (الانتشار هى حركة نمط ثقافى مـــن مجتمع الى آخـــر ، أو فى داخل المجتمـــع نفسه ، ومن الواضح انه بـــدون الاختراع أولا لا يكون هناك انتشار ، ولكن بدون الانتشار لا يكون هنـــاك الا تغير طفيف ، اذ لا ينتج مجتمع بذاته أكثر من شظايا من العناصر الثقافية فيه) (٢) · (لم يصنع مجتمع من المجتمعات المعقدة على وجه الأرض الآن أكثر من قليل جدا من العـــدد الكلى لعنـــاصر الثقـــافة الموجودة فيه · كل المجتمعات استعارت العناصر من مجتمعات أخـــرى) (٣) · (فلا تنمو الثقافة فقط بالاختراع أو الاكتشاف ، ولكن أكثر بالانتشار · والانتشـــار هو استعاره أو قبول سمة أو نمط من وحدات اجتماعية أخرى) (٤) · (بواسطة هذه العملية تنتشر الثقافة بشكل واسع ، وما يخترع أو يكتشف فى مجتمـــع ينتشر الى المجتمعات الأخرى فى كل العالم · والأساليب الحديثة لوســـائل الاتصال الجمعى ووسائل النقل ، وسهولة تقابل الناس ، كلها قد ســـهلت

---

1 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., P. 590.

2 — Merrill : Op. Cit., P. 462.

3 — Bierstedt. R. «The Social Order», Second Edition. McGraw-Hill Book Com., Ine kogakusha com, Ltd. Tokyo. 1963 P. 152.

4 — Young. K. and Mack, R. : «Systematic Sociology» Affilited East-West Press Pyt. LTD New Delhi, 1972, P. 460.

الانتشار الثقافى الى درجة أن بعض الأشياء يمكن الآن أن تكون موجودة فى كل مجتمع تقريبا ، باستثناء أكثر المجتمعات البدائية انعزالا) (١) · (ومن المتفق عليه بصفة عامة أن الانتشار أكثر أهمية من الاختراع فى البناء الكلى لأى ثقافة · اذ أن السمات المستعارة فى أى ثقافة أكثر من السمات المخترعة) (٢) · ويبدو أن ذلك يرجع الى أن الاستعارة أسهل من الاختراع ، اذ أسهل على الانسان أن ينظر حوله ويقع على بعض الأساليب المستعملة فعلا ، من التفكير فى اختراع أسلوب جديد كلية لمواجهة موقف جديد قد نجح فيه ذلك الأسلوب المستعمل المستعار ·

(وتقرر نظرية الانتشار الثقافى أن التغيرات الكبرى فى المجتمع تحدث نتيجة للاحتكاك بمجتمعات أخرى ·· وجزئيا انبعثت النظرية من مفهوم انثروبولوجى قديم عن الأهمية الرئيسية لانتشار العناصر الثقافية · فقد اعتنق بعض الانتشاريين الأوائل أفكارهم بشكل متطرف ، واعتبروا أنه اذا وجدت سمات ثقافية متشابهة فى مجتمعات منفصلة متباعدة اذن لابد وأنه كان هناك اتصال قديم بين هذه المجتمعات والذى يمكن تتبعه تاريخيا) (٣) ·

وما زال هذا الرأى يجد له مؤيدين بين علماء الانثروبولوجيا المحدثين ، وفى الحقيقة أن التشابه فى السمات الثقافية بين المجتمعات المتباعدة فى المكان لفت أنظار هؤلاء العلماء ، بل الأكثر من ذلك أنهم وجدوا تشابها فى السمات الثقافية بين جماعات مختلفة لغويا وسلاليا · فنجد أن روث بندكت تقرر (أن من أهم الحقائق الخاصة بالانثروبولوجيا ، ذلك العمل الانثروبولوجى الكبير الذى خصص لفهم حقائق التقليد البشرى على مدى المناطق البدائية التى انتشرت فيها السمات ، سمات العادات الاجتماعية

---

1 — Bierstedt : Op. Cit., P. 151.

2 — Young and Mack : Op. Cit., P. 461.

3 — Kroeber, A.L. : «Diffusionism» Encyclopidia of the Social Sciences. N. Y., Macmillan, 1932.

لأساليب العمل وللاحتفالات والخرافات وللتبادل الاقتصادى عند الزواج ، كلها منتشرة فى كل المناطق ، وكل قبيلة فى منطقة لديها السمات فى شكل ما ، ولو أن بعض المناطق فى هذه المنطقة الواسعة أبرزت أهدافا ودوافع متمايزة على هذه المادة الخام · فيستخدم جماعة البوبلو طرق الزراعة والحيل السحرية والخرافات المنتشره بشكل واسع والتى تنتمى الى أجزاء كبيرة من شمال أمريكا ··· أى فهم واضح لعملية التكامل الثقافى يجب أن يأخذ نقطة انطلاقه من معلومات أو معرفة عن حقائق الانتشار) (١) ·

ظاهرة الانتشار هذه لم تسترع انتباه العلماء فقط ، بل ادت أيضا الى انقسامهم حول تفسيرها ، فمنهم من أرجع التشابه بين السمات الثقافية الى انتشارها وسمى هذا الاتجاه بالمدرسة الانتشارية ، ومنهم من أرجع التشابه ليس الى قدرة السمات الثقافية على الانتشار ، بل أرجع التشابه الى التشابه فى البيئات الطبيعية لدى المجتمعات المتشابهة ثقافيا ، اذ فى اعتقادهم أن التفكير الانسانى هو واحد فى كل مكان وزمان · ومن ثم فاذا اتفقت الظروف الطبيعية والبيئية فالنتيجة هى ثقافات متشابهة ، ولذا سميت هذه المدرسة بمدرسة النشأة المستقلة ، اذ أن أولئك العلماء اعتبروا أن الثقافة تتطور من داخل المجتمع · ولكن وجهت انتقادات شديدة لهذه المدرسة ، بل ان المدرسة الانتشارية قامت على أساس رفض دعاوى تلك المدرسة · وأرجعت التشابه بين الثقافات الى عملية الانتشار ، ذلك عن طريق الاحتكاك بين المجتمعات سواء عن طريق التجارة أو الحروب أو الهجرة ، حيث يرى المجتمع المستعير فى السمة الثقافية المستعارة أسلوبا فى التفكير أو العمل أكثر اشباعا مما لديه ·

وهذه النقطة بالذات تؤدى الى ابطال رأى أصحاب المدرسة التطورية أو مدرسة النشأة المستقلة ، اذ أن استعارة نمط ثقافى من مجتمع آخر يؤدى الى اضطراب الخط التطورى الذى يزعمه أصحاب مدرسة النشأة المستقلة ·

---

1 — Benedect : Op. Cit., P. 223—4.

ويوضح ذلك أوجبرن ونمكوف فى تساؤلهما (عن ، لماذا لا يذهب النظام خلال نفس المجموعة من الأطوار فى كل ثقافة ؟ السبب هو أن التعديلات تأتى اليه من الخارج · مثلا أصبحت الحكومة فى جزر الفلبين ديموقراطية بواسطة الاستيراد المباشر لهذا النمط من الحكومة فى أمريكا بدون ضرورة الذهاب خلال الأطوار المختلفة التى مرت بها أوربا ··· اذ كانت كل بلاد العالم منفصلة وليست ملتصقة كل بالأخرى ، احتمالية تطور النظم خلال نفس المراحل سوف تكون أكبر · ولكن عندما يكون كل الناس فى احتكاك مع عدد كبير من الشعوب الأخرى ، ومع نظم فى درجات مختلفة من النمو ، وعندما تنتشر السمات الثقافية من شعب لآخر ، فسوف يختلف مجرى النمو لأى نظام من مكان لآخر) (١) ·

وتلك حقيقة واضحة جدا اذ أن السمات الثقافية تنتشر ، اذ تستعير المجتمعات المختلفة السمات الثقافية كل من الأخرى · ومن ثم فان التشابه فى الأنماط الثقافية فى المجتمعات المختلفة لا ينشأ نشأة مستقلة تلقائية نتيجة للتشابه فى الظروف الطبيعية وتشابه تكوين العقل البشرى كما يدعى أصحاب مدرسة النشأة المستقلة · فاذا افترضنا أن الانعزال الاجتماعى يتضمن الغياب النسبى للانتشار · ومن ثم فهذا الظرف يولد الركود الثقافى · وأن الاتصال والاحتكاك الثقافى يتضمن عملية الانتشار وأن هذه العملية تساعد على النمو الثقافى · ثم اذا اتجهنا بهذه المسلمة لنفحصها فيما نعرف من مناطق العالم سنجد أن المنطقة التى كان يسودها الاحتكاك والاتصال منذ أقدم العصور ، وهى منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط والمناطق المحيطة بها ، تلك المناطق شهدت نموا عظيما ، بينما أمريكا واستراليا قبل اكتشافهما أى حتى القرن الخامس عشر ، كان التغير فيهما بطيئا جدا لانعزالهما ، ذلك رغم أن أمريكا واستراليا وأيضا نيوزيلندا لديهم

---

1 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., P. 489.

ظروف طبيعية وبيئية متشابهة وأن العقل البشرى كما يزعم أصحاب اتجاه النشأة المستقلة هو واحد · ورغم هذا لم تصل أنماطهم وعناصرهم الثقافية مثل ما وصلت اليه الحضارة الاسلامية أو الحضارة الأوربية الحديثة ·

والأكثر من ذلك أنــه يمــكن تتبع آثــار انتشار السمات الثقافية عبر التاريخ · فان السمات الثقافية سواء المادية أو اللامادية التى وجدت عنــد شعوب تلك المنطقة فى مختلف أمكنتها وأزمانها لم تظهر تلقائيا عند كل منها بعيدة عن الأخــرى فلقــد اثبت علماء الآثــار والاثنوجرافيا أن الحضــارة الفرعونية انتشر كثير من سماتها الثقافية شرقا الى الفينيقيين ، وغــربا حتى قرطاجنة ، ثم انتشرت عبر البحــر الى مالطة وكريت ثم الى اليونان التى استعارت كثيرا من السمات الثقافية ، وكذلك عندما قامت الــدولة الرومانية استعارت كثيرا من السمات الثقافيــــة الأغريقية حتى أنه ليعتبر الفكر الرومانى امتدادا للفكر اليونانى · وعند نشأة الدولة الاســلامية اســتعارت كثيرا من الســمات الثقــافية اليونانية والرومــانية حيث ترجم التراثان اليونانى والرومانى ثم انتقــل كثير من الســمات العربية الى أوربا ، وعرفت هناك أفكار الفارابى والكندى وانتشرت سمات أخرى عربيــة عن طريق التجارة وكذلك الحروب بين الأندلسيين والفرنجة · وهكذا يمــكن تتبع انتشــار الثقــافة من الثقــافة المصرية القديمة حتى الثقافة الأوربيــة الحــديثة ·

وهذا ما دعا العلماء الأوائل الذين كتبوا عن النمو الثقافى والانتشار بالقول بأن الثقافة تطورت بانتشارها من عدد معين من مراكز الثقافة · ولقد خضعت السمات الثقافية أثناء عملية الانتشــار والاحتكاك ثم التوطن فى الثقافات الأخرى لكل أنواع التبدل والتغير طبقا لمفهوم كل مجتمع · واذا كان كذلك عن الثقافات الراقية فماذا يمنع أيضا أن تكون السمات الثقافية المتشابهة عند المجتمعات البدائية قد اتبعت نفس الأسلوب ، أى انتشرت من مراكز ثقافية معينة الى القبائل الأخرى ، حتى وان لم يكن هناك دليل على

ذلك الانتشار غير مجرد التشابه القائم بينها ، ويزيد ذلك الاحتمال عندما تكون سمات هذه الثقافة معقدة وتوجد معظمها مع ذلك فى كل تلك المجتمعات المنتشرة على مساحة كبيرة على ماذكرت روث بندكت عن ثقافة البويلو المنتشرة فى أجزاء كبيرة من شمال أمريكا (١) ٠

وقد استرعت ظاهرة الانتشار من مراكز معينة للثقافة انتباه العلماء الأوائل فى دراسة الانتشار ولكن تغير وسائل الاتصالات من طائرات وتليفزيون وراديو وصحف وسينما ، قد قلبت هذه النظرية ٠ فهى ان كانت تصلح لدراسة تطور الثقافة وانتشارها فى المراحل المبكرة من تاريخ الانسانية ٠ فقد دخلت وسائل الاتصال الحديثة كعامل شديد الأثر فى عملية الانتشار ، مما قلب نظرية الانتشار من مراكز معينة فى شكل دوائر رأسا على عقب ٠ (فى المحاولات العلمية المبكرة لدراسة الانتشار الثقافى التى عملها الانثروبولوجيون الثقافيون ، اقترحوا أولا أن الانتشار يحدث بنفس الطريقة التى تتبعها الدوائر المنتشرة من وقوع حجر فى الماء ٠ هذا الكلام يعنى أن الثقافة تنتشر فى دوائر منتظمة بمعدل ثابت السرعة وفى وسط متجانس ٠ وطبقا لهذا الشرح لابد وأن تكون نقطة واحدة مركزية للاصل التى انتشر منها التجديد) (٢) ٠ ولكن فى ظل وسائل الاتصال الحديثة فقد مفهوم الدائرة المركزية كثيرا من صلاحيته ٠

وهكذا أصبح مفهوم الانتشار عند علماء الاجتماع المعاصرين شيئا آخر ، فهو عند ميرل (الانتشار هو العملية التى بها سمة ثقافية أو نمط ثقافى ينتشر من فرد أو جماعة أو مجتمع لآخر ٠ هذه العملية تنطلق بواسطة هيئات : التجارة والحرب والتزاوج والأدب وطلاب العلم المسافرين ، والجامعات والصحف والراديو والسينما والتليفزيون قد نشروا سمات وأنماطا فى داخل المجتمع ومن مجتمع لآخر) (٣) ٠ ويعتبر لندبرج أن

---

1 — Benedct : Op. Cit., P. 223.
2 — Merrill : Op. Cit., P. 467.
3 — Ibid., P. 467.

(انتشار الثقافة يشير الى انتشار وامتداد المصطلحات الثقافية فى المكان ، من شخص الى شخص ، ومن قبيلة الى قبيلة ، ومن بلد الى بلد حول العالم) (١) · وهى عند ميردوك (النوع الرابع من التجديد هو الاستعارة الثقافية والاستعارة الثقافية تعتمد على الاتصال ، وفى هذه الحالة يستعير المجتمع بعض العادات الاجتماعية التى وجدت فى مجتمع آخر) (٢) ·

وقد يستعير المجتمع نمطا ثقافيا كاملا ، وهذا ما يسمى بالهجرة الشاملة ، وقد يستعير جزءا من نمط ثقافى · وعلى أى حال سواء كان النمط المستعار كاملا أو جزءا منه فانه لا يتم نقله كما هو شكلا ومضمونا · اذ أن السمة المستعارة يقبلها المجتمع المستعير من خلال مفاهيمه ، ومن ثم فقد تتغير فى الشكل أو المضمون أو أو الأثنين معا ·

(ومن اهم العوامل فيما يتعلق باحتكاك عناصر الثقافة هو أنها تنتقل من مجتمع لآخر غالبا بالاقتصار على عبارات من أشكالها · فى كلمات اخرى ، يحاكى المجتمع المستعير أنماطا معينة من السلوك كما هى مفهومة له ، عادة بدون فهم محتواها الثقافى الأصلى) (٣) · والأكثر من ذلك ، قد يستخدم المجتمع المستعير السمة المستعارة فى غرض آخر ، مثل (هنود ساحل شمال غرب أمريكا نسجوا بطاطين فى رسم ليقلدوا البطاقة التى على علبة الطماطم) (٤) ·

ويلاحظ أن انتشار الثقافة ليس بالضرورة من الجماعات المتحضرة الى الجماعات الأقل تحضرا ، ولكنها متبادلة بين المجتمعات بغض النظر عن درجة تحضرها ·

وقد يكون الانتشار مباشرا أو غير مباشر · ويحدث الانتشار المباشر عند ما يكون بين الأشخاص أو الجماعات احتكاك مادى فعلى ويمكن

---

1 — Lundberg : Op. Cit., P. 705.
2 — Murdock : Op. Cit., P. 253 — 254.
3 — Linton, Ralph : «The Tree of Culture» Alfred A. Knoff Inc., N.Y., 1955 P. 45.
4 — Merrill : Op. Cit., P. 468.

توضيح هذه العملية بالهجرة أو الاستعمار ، والاحتكاك أثناء الحروب أو التجارة ، أو أثناء عمل الارساليات التبشيرية · أما الانتشار غير المباشر فهو انتشار السمات الثقافية دون الاتصال المادى للأشخاص أو الجماعات ، وتتم هذه العملية عن طريق وسائل الاتصال الجمعى مثل الراديو والتليفزيون والسينما والصحافة والمجلات والسلع المنقولة ·

ولقد ينشأ نوع من التغير الاجتماعى نتيجة الاحتكاك الثقافى المؤدى الى تفكك القيم الموجودة فى المجتمع · وذلك عندما لا يتأكد الناس مما هو صواب وصالح نظرا لمواجهتهم لمجموعتين أو أكثر من القيم الثقافية ، عند ذلك يصبحون أكثر رغبة فى قبول أفكار وقيم جديدة · اذ عندما تدخل ثقافة فى احتكاك مع ثقافة أخرى · لا يحدث التغيير ببساطة لمجرد أن بديلا أصبح موجودا ، ولكن لأن الناس أيضا قد تبينوا أن البدائل ممكنة وأن القيم الجديدة مناسبة · ولهذا يصبح الناس الذين وضعوا فى احتكاك مع ثقافات أخرى موجهين نحو التغير · ومن ثم يصبح لديهم الرغبة فى قبول أفكار جديدة وقيم جديدة وأساليب جديدة فى العمل بل قد يصبحون مخترعين ، ليس فقط فيما يختص بالتكنولوجيا ، ولكن أيضا فيما يختص بالبناء الاجتماعى وأنماط السلوك الاجتماعية ·

ويلاحظ أن التغير الاجتماعى الناشىء عن الاحتكاك الثقافى غير قابل للارتداد ، بالرغم من المجهودات المتعمدة لرده وحتى لو توقف الاحتكاك الثقافى · ذلك لا يعنى أن الثقافة المستعيرة التى تتغير تتحرك بالضرورة نحو مزيد من التشابه للثقافة الأخرى · كما أ نالمقاومة وردود الفعل ضد الثقافة الأخرى تصنع أيضا تغيرات وان كان ذلك لا يؤدى بالثقافتين الى مزيد من تجانس كل مع الأخرى ·

التكنولوجيا والثقافة

التكنولوجيا ما هى الا عنصر من عناصر الثقافة ، بل وعنصر شديد التعلق بالعالم الاجتماعى · رغم اننا (لا نفكر عادة فى التكنولوجيا كشىء اجتماعى ، ونعتبر التكنولوجيا كشىء ميكانيكى ويمت الى العلوم الطبيعية · وبالنسبة الى اعتبار ان التكنولوجيا تتعلق بصناعة الأشياء الطبيعية ، فانها تقع فى منطقة العلوم الطبيعية · تكرس مناهج الدراسة فى الكليات التكنولوجية اكبر جزء منها للعلوم الطبيعية وقليل منه للعلوم الحيوية أو الاجتماعية اذ أن انتاج الأشياء التكنولوجية لايقع فى منطقة العلوم الاجتماعية، وايضا منذ وجود معانى هذه الأشياء التكنولوجية فى حقل العلوم الاجتماعية ، فانه من الغريب أن العلوم الاجتماعية تعامل هذه الأشياء وكأنها لا تمت بصلة للتكنولوجيا · فانهم يناقشون سلوك ودوافع وعلاقات الأفراد بالجماعة والنظم الاجتماعية كالأسرة والكنيسة والحكومة مثلا ، كما لو ان وجودها يعتمد على ثقافة مادية · وايضا المدرسون فى المدارس التكنولوجية يعلمون تلاميذهم كيف يعملون هذا ويركبون هذا ، وبرغم أن هذه التركيبات ستستعمل بواسطة المجتمع ولها اثرها على الحياة الاجتماعية ، مثل هذه الأمور يبدو أنها لاتعنى رجال التكنولوجيا كما لو أن هناك حائطا كبيرا بين التكنولوجيا والسسيولوجيا ·· العلاقة بين التكنولوجيا وعلم الاجتماع من نوعين الأولى الموقف الاجتماعى الذى يؤدى الى ظهور الاختراع واستعماله ، والثانى تأثير استعمال هذا الاختراع على المجتمع) (١) ·

ومن الواضح أن التكنولوجيا لا تعمل فى فراغ ، فهى أساليب فى التفكير والعمل نابعة من المجتمع الانسانى لتخدم أغراض هذا التجمع ، بل ان اختلاف حجم المجتمع نفسه يؤدى الى اختلاف الوسائل التكنولوجية المتاحة والتى يمكن أن تتاح والأكثر من ذلك أن وقت الفراغ المتاح للمجتمع فى كبره وصغره يشكل عاملا فى اختلاف انواع الوسائل التكنولوجية ، بل وما يمكن ان تتاح منها

---

1 — Ogburn : «The Meaning of Technology» Op. Cit., P. 9

ولهذا فأصل العمل التكنولوجى اجتماعى · (ولكن أولئك الذين يتعلمون الصناعة لا يعنون بأصلها الاجتماعى ، ولكن كل عنـايتهم تكون موجهة الى الحصول وتجميع المادة التى تؤدى الى اقامة المصنع دون الاحساس بالحاجة الاجتماعية التى أدت الى انشاء هذا المصنع · وذلك الذى يفكر فى اختراع محرك صغير أو أكثر قوة على العمل أو أقل تكاليف لا يفكر فى السبب الذى دفعه الى التفكير فى هذا الاختراع · فهناك حاجات اجتماعية تدعو للتفكير فى الاختراع وهناك آثار اجتماعية لاستعمال هذا الاختراع) (١) ·

ولقد اختلف علماء الاجتماع حول مدلول اصطلاح التكنولوجيا ، فقصره البعض على الجانب المادى من الثقافة · والآخرون استعملوه بمعنى أوسع فجعلوه ينطبق على كل من جانبى الثقافة المادى واللامادى · فبارنت يستخدم اصطلاح التكنولوجيا لينطبق على الجانب المادى من الثقافة فيقول (عندما يفكر الشخص العادى فى التغيرات التى جلبهـا العلم هـو عادة يفكر فى التكنولوجيا وعجائبها المتعددة) (٢) · وكذلك أوجبرن يستخدم اصطلاح التكنولوجيا فيما يتعلق بالجانب المادى من الثقافة فيقول (التكنولوجيا يمكن أن يختلف فهمها باختلاف النظر اليها ، وعلى أى حال فأننا سنستعمل هـذا الاصطلاح بأوسع معانيه · وأن أضيق تحديد لمعنى الاصطلاح هـو دراسة الأساليب الفنية ، ومع هذا فان التكتيك يشتمل على مدى واسع من الأشـياء المادية · ويمكن اعتباره يشتمل على كل الأشياء التى يمكن اعتبارها الثقافية المادية · وعلى هذا فالتكنولوجيا تكتنف وتحيط بصناعة كثيـر من الأشياء المختلفة من الأسهم والأقواس والفخار والمحاريث والآلات البخارية والماس والنايلون · ولا ستخدام مفهوم التكنولوجيا بشكل أوسع فأننا نبحث فى علاقة العلم بالتكنولوجيا هل التكنولوجيا تختلف عن العلم الطبيعى ؟ ، فربما يقال أن عمل الآلات يعتمد على تطبيقات العلم ذلك رغم أنه فى بعض الحالات يكون بسيطا كصناعة الفخ عند الصياد البدائى · وعلى هذا فقد تشتمل التكنولوجيا

---

1 — Ibid., P. 10.
2 — Barnett : Op. Cit., P. 7

على العلوم التطبيقية التى تساعد على صناعة الأشياء المادية) (١) • واضح أن أوجبرن رغم أنه يستعمل اصطلاح التكنولوجيا بمعناه الواسع ، الا أن هذا الاتساع عنده لم يتعد عناصر الثقافة المادية •

ويرفض كثير من العلماء فكرة أن التكنولوجيا تنطبق فقط على العناصر المادية من الثقافة ويذهبون الى اصطلاح التكنولوجيا يقصدون به معنى أوسع من ذلك• ويوضح لندبرج الفرق بين المعنى الضيق والمعنى الواسع للتكنولوجيا بقوله (وبنمو اللغة المكتوبة ، المجال والاتقان الممكن به نقل الخبرات السابقة للنوع الانسانى قد زادا بلا حصر ، الآن أصبح التراكم النامى للخبرات فى شكل المعرفة والخبرات الرمزية الأساس لاختراع ما يسمى بالآلات والأدوات الفوق عضوية • هذا النمو التكنولوجى الواضح ، كنتيجة لقدراتهم الواضحة والمحفزة فى شكل آلات كهربائية وبخارية • هذا الاهتمام بالتكنولوجيا كما حدد بعاليه ضيق ، وعلى العموم له تأثير صحى على العلوم الاجتماعية : فى المكان الأول كان له علاقة أساسية من خلالها ابتدأ علماء الاجتماع رؤية الوحدة لكل العلوم ، وهكذا تدريجيا وطنوا وجهات نظر ومناهج الميادين الأعلى نموا ، وفى المكان الثانى ، دراسة المجتمع من وجهة نظر التكنولوجيا التى أفصحت عن امكان اختراع ميكانزمات اجتماعية يكون لها قدرة متكافئة فى انجاز كثير من التكيفات الاجتماعية المرغوبة • ومن وجهة النظر هذه ، التكنولوجيا تعنى المعرفة لكل الوسائل الفنية لتكيف الانسان أيا كانت ، ومن أبسط تأمل الى استخدام أعظم آلة أو حكومة امبراطورية) (٢) •

ولقد ابتدأ النمو التكنولوجى بطيئا جدا ، وتقدم أولا بواسطة تفاعلات متبادلة بين الانسان والانسان ، وبين الانسان والبيئة خلال آلاف السنين • وكانت هذه العملية غير مدركة أولا ، الا أن التراث الاجتماعى ظل يتزايد من جيل الى جيل ويتزايد بسرعة كلما تتزايد عناصر الثقافية • وكنتيجة لهذا التراكم

---

1 — Ogburn : «The Meaning of Technology» P. 8.

2 — Lundberg : «Foundations of Sociology» Op. Cit., P. 505 — 506.

المتزايد السرعة ، تكيف الانسان للبيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية وتبدل خلال القرنين الأخيرين تبدلا عظيما ، جذب أنظار عديد من علماء الاجتماع فقاموا بدراسات كثيرة عن النمو التكنولوجى حتى استطاع هذا النوع من الدراسات أن يجعل من نفسه لونا متمايزا • (النمو السريع للآلات لانجاز تكيفات مرغوبة من زمن بعيد للبيئات الطبيعية والجغرافية ، التأكيد على هذا الوجه فى الكتابات الاجتماعية فى السنين الحالية أصبح واضحا بدرجة كافية لابراز أنها ظاهرة جديدة تماما وان كان واضحا أنها ليست كذلك) (١) • وكذلك يوضح ماكيفر جاذبية دراسات النمو التكنولوجى اذ أن (لها من ناحية أخرى جاذبية وأهمية خاصة لعصرنا اذ يتعلق التغير السريع لمجتمعنا ويعتمد بدرجة ما على النمو لأساليب فنية جديدة ، واختراعات جديدة وأساليب جديدة للأنتاج ومستويات للمعيشة جديدة) (٢) •

ويبدو أن ماجذب علماء الاجتماع الى هذا اللون من الدراسة هو طبيعة موضوع دراسات النمو التكنولوجى ، لما يتميز به من سهولة تناوله نظرا لما تتمتع به العناصر التكنولوجية وخاصة المتعلقة بالجانب المادى من الثقافة من الاستمرار من ناحية وامكان قياسها من ناحية أخرى • ويوضح ماكيفر صعوبة دراسة التغير الاجتماعى عامة ، وخاصة الجانب اللامادى من التفكير التكنولوجى اذ (المجتمع يوجد فقط كتتابع زمنى • انه آت وليس كائن ، عملية وليس نتاج • وفى كلمات أخرى ، بمجرد توقف العملية يختفى الانتاج • يبقى انتاج الآلة بعد كسرها ، وتعيش الحفريات أجيالا بالرغم من أن الحياة التى صنعتها زالت • فى كل هذه الأمثلة الانتاج منفصل عن العملية ويستمر فى الوجود منفصلا كلية عن القوى التى أعطته شكله ومميزاته • وبدرجة ما نفس الشىء صادق ليس فقط عن الآثار المادية لثقافة الانسان الماضية ، ولكن حتى لمنجزاته الثقافية اللامادية فانها منتجات نقلت للأجيال ، مثل أشعار هومير ، طالما أن الطبيعة الانسانية تحفظ نفس القدرات ، فهى تظل العجلة التى تتصل

---

1 — Ibid., P. 506.
2 — Maclver and Page : Op. Cit., P. 552,

بها الأجيال الماضية بالحاضر · العمليات التى انشأتها قد زالت ، ودامت المنتجات · ولكن نظاما اجتماعيا أو نسقا طبقيا ، هو انتاج يدوم فقط فى العملية التى أنشأته · اذا لم يعد الناس يحافظون على عادة جمعية ، فالعادة الجمعية لا توجد بعد على وجه الأرض · فانه ليس لها جسم يبقى بعد موتها فانها توجد فقط كأسلوب للنشاط منمطة فى عقول أولئك الذين يتبعونها · أسلوب للعلاقات لا يمكن أن يجرد من الحياة التى هو تعبير عنها · لا يمكن وضع بناء اجتماعى فى متحف لحفظه من عوائد الزمن) (١) ·

وفى عبارة أخرى يوضح ماكيفر سهولة دراسة النمو التكنولوجى المادى · ومدى الأمان العلمى الذى يستند اليه الدارس عند دراسته للنمو التكنولوجى المادى · (يبدو الموقف مختلفا عندما نتجه للعوامل التكنولوجية ، اختراع جديد يقوم فجأة وينمو بسرعة · يمكننا رؤية كيف يمهد لتغيرات اجتماعية · يمكننا رؤية كيف أنشأ الراديو مستويات مألوفة للحديث أو كيف يعطى المدنية ثقافة جديدة تسود على البلاد ··· وأكثر من ذلك التقدم التكنولوجى يمكن تتبع تأثيره المستمر على فترات طويلة · وفى نفس الوقت ، فانه ثابت وقابل للقياس وقابل للمشاهدة ، ومن ثم فالدراسة لتأثيره على المجتمع يبدو أنها تمنح منظرا أكبر للعقل العلمى ، وطالما يمكننا اقامة علاقة واضحة بين تغيراته والتغيرات الاجتماعية المطابقة نكون على أرضية علمية)(٢) ·

وكذلك يتحدث أوجبرن عن وضوح النمو التكنولوجى ، (اذ تكون النتيجة كبيرة التباين فمن اللاوجود الى الوجود مثل عندما يخلق شىء جديد ، مثل عندما اخترع التليفون أول مرة ، فهناك تباين من لا شىء ، من لا تليفون الى تليفون) (٣) · وكذلك يعقد أوجبرن ونمكوف مقارنة بين دراسة جانبى الثقافة المادية واللامادية ، يوضحان فيها مدى صعوبة دراسة

---

1 — Maclver and Page : Op. Cit., P. 511.
2 — Ibid., P. 552.
3 — Ogburn : «The Technology causes Social change. P. 12.

الجانب اللامادى من الثقافة من ناحية ، ومدى سهولة تناول الموضوع من ناحية الثقافة المادية ، والدقة العلمية التى يمكن أن تتاح عند دراسة تغير الثقافة من ناحية التغير التكنولوجى • بل يذهبان الى أبعد من ذلك الى حد القول بأنه يمكن تتابع أطوار الثقافة عن طريق دراسة التغير التكنولوجى المادى ، بل عندهما تعتبر هذه الوسيلة أفضل الطرق لدراسة التغير فى الأجزاء الأخرى من الثقافة • اذ أن (الثقافات المادية هى أكثر سهولة من ناحية التصنيف فى سلسلة من المراحل المبكرة الى المتأخرة عن التنظيمات الاجتماعية • فجماعى الغذاء بالمعدات الخشبية والحجرية ولكن دون اعتماد كبير على صيد الحيوانات المتوحشة ، لا بد أن يكون دائما مبكرا جدا • ثم بعد ذلك أتت تخمينا ، مهارة أكثر فى صنع الأسلحة ، مما يؤدى الى قدرة أكثرعلى الصيد والقنص • فالتطور فى الوسائل الفنية للصيد ، والتأخير فى نمو الفلاحة تمكن من التصنيف للمجتمعات الممتدة من ثقافات الصيد البسيط الى المعقد • ابتدأت الزراعة بعصا الحفر ، ومؤخرا أتت الى استعمال المحراث ، يصاحبه استئناس الحيوانات • وبعد ذلك أتى البخار والبترول والكهرباء ، مثل هذه السلسلة معقولة بسبب الميل فى أن تحل آلة متفوقة محل آلة ناقصة • فالتفوق لأداة ميكانيكية جديدة هى أكثر قابلية للتحديد عن تفوق ديانة جديدة أو أساطير جديدة • اذ أن تفوق أداة تكنولوجية يقوم على اختبار بسيط هو عما سوف تفعله فى المنجزات الطبيعية ، ذلك يمكن اظهاره وتوضيحه بسهولة • ولكن تفوق تنظيم اجتماعى هو بصفة عامة لا يمكن تحديده بمثل هذا الاختبار السهل البسيط فانه يقوم ، بدلا من ذلك على عدد من العوامل ، وخاصة فى روابطه مع النظم الاجتماعية الأخرى • وتطوير آلة لا يعتمد الى هذا الحد على علاقتها مع بعض التنظيمات الاجتماعية • ويعتمد صناعة آلة جديدة على المعرفة الموجودة عن الآلات • كما أنه فى حالة المخترعات الميكانيكية ، الاعتماد على ما قد ذهب هو أكثر قابلية للمشاهدة عنه فى حالة اختراع فى نسق القرابة أو فى نمط للقيادة • ومن ثم فهناك منطق أو أسبقية آلية فى الثقافة المادية سواء كان هناك أسبقية معاصرة أولا ••• وبما أن التتابع فى الثقافة المادية هو جزئيا مسألة

تسجيل ، وجزئيا قابل للاستخراج ، ولهذا من الممكن الاستفادة من هـذه الحقيقة فى تصنيف النظم • فليس للأجزاء الأخرى من الثقافة تتابع تاريخى ممكن مشـاهدته ، أو حيث التتـابع يمـكن استخراجه فقط فى مصطلحات فضفاضة جدا • وهكذا أصبحت الثقافة المادية مستوى للمقارنة أو مصطلح للرجوع اليه) (١) •

وأيضا مالفت أنظار علماء الاجتماع هو النمـو السريع فى مجـال التكنولوجيا • (فشهرتها فى الوقت الحاضر ، راجعـة الى سرعتها المقارنة لنموها فى حقول معينة) (٢) • ويبـدو أن ذلك راجـع لطبيعة التكنولوجيا نفسها فهى لها قدرة فائقة على التراكم السريع مما يؤدى الى تغيرات واضحة وبعيدة الأثر • فمن المنابع (للتغيرات الاجتماعية ، التغير الدائم والنمـو المستمر فى الوسائل الفنية • ومن أهم المميزات فى النظام الصناعى هـو الاختراع المتواصل للآلات الجديدة • أو عمليات طبيعية أو كيميائية جديدة • هذا النمو المستمر يجعل الصناعة كنظام للانتاج يتميز عن النظم الانتـاجية الأخرى • وبدون شك من أهم العوامل التى تدفع بهذا النمو قدما ينبع مـن رغبة الادارة فى الربح ، ولكن أيضا يبدو أن التكنولوجيا تنمو أيضا عـن طريق عملية داخلية ذلك أن الاختراع الجديد يؤدى الى اختراع آخر ، ومبدأ جديد فى الادارة يؤدى الى مبدأ آخر ، واختراع طرق كيميائية جديدة تؤدى الى انتاج جديد • وأكثر من هذا فبالرغم من أن التقدم التكنولوجى يسير بخطى واسعة من زمن بعيد فليس هناك ما يدل على أنه قد أبطأ بل بالعكس فالعالم على أبواب فتح عظيم جديد وهو استخدام الطاقة الذرية فى ميادين الصناعة المختلفة • ويرتبط النمو التكنولوجى بنمو العلوم ، ونمو العلوم لا يبدو أن له حدودا) (٣) •

ويبدو أن تلك الظاهرة هى التى جعلت أوجبرن يقرر أنه (من الملاحظ ، وأن كانت ملاحظتنا غير قائمة على أساس احصائى توضـح لنا أن التغير

1 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., PP. 490 — 491.
2 — Lundberg : «Foundations of Sociology» Op. Cit., P. 506.
3 — Schnieder, Eugene V. : «Industrial Sociology» McGraw-Hill Book Com. Inc. N.Y., 1976. P. 488.

السريع فى الوقت الحاضر فى الجانب المادى من الثقافة ، وفى العلوم أيضا · ولكن هذا التغير أقل سرعة فى القطاعات الأخرى من الثقافة اللامادية · فالتغير سريع وواضح فى جانب الثقافة المادى وهو أقل سرعة وأكثر بطأ فى القطاع اللامادى منالثقافة · وكذلك يبدو أيضا أن عمليات التجمع فى الوقت الحاضر أكثر نشاطا وسرعة فى العلوم الطبيعية وفى الجانب المادى من الثقافة وهى التى تعرف بعمليات الانتاج واستخدامه — وهكذا يبدو لنا أيضا أن الجزء المادى من الثقافة والعلم الطبيعى ، انهما أكثر سرعة فى نموهما من الجانب اللامادى · اذا نحن تحققنا ولو فى الخيال من العلاقة الوظيفية بين الأجزاء المختلفة للثقافة ومعدل التغير الاجتماعى مستقبلا ربما تنبئنا بزيادة التغير فى الثقافة المادية) (١) ·

وتهتم دراسات التغير التكنولوجى بالتغير فى العناصر التكنولوجية اذ أن التحول من حالة الثقافة التى تسودها الفنون الزراعية والرعوية الى المرحلة الصناعية للحضارة التى مارسناها فى الأربع قرون الأخيرة (هذا التحول حدث كنتيجة لاكتشاف منابع جديدة للطاقة فى شكل الفحم وأخيرا فى شكل الزيت والجاز كوقود للبخار وآلة الاحتراق الداخلى فالنتائج كانت أكثر وضوحا عن الثورة الزراعية · فلقد كان هناك زيادة عظيمة فى السكان ، ووحدات سياسية أكبر ، ونمت مدن أكبر ، والثروة بالرأس زادت زيادة عظيمة · وربما ما هو أكثر أهميةكان نمو الفنون والعلوم) (٢) ·

هذه التغيرات المصاحبة للنمو التكنولوجى هى التى استرعت انتباه علماء الاجتماع ومن ثم كرسوا جهودهم لدراسة العلاقة بين هذا النمو التكنولوجى وآثاره الاجتماعية · وكان طبيعيا أن تكون المشكلة الأولى هى ما اذا كانت هناك علاقات علية بين النمو التكنولوجى وبين التغيرات المصاحبة له · وقد توفر أوجبرن على أثبات العلاقة العلية بين التكنولوجيا والمجتمع (بمعنى أن تغيرات فى التكنولوجيا تسبب تغيرا فى بعض النظم أو العادات·

---

1 — Ogburn : «Social change» Encyclo. P. 332.

2 — Lundberg : «Sociology» Op. Cit., P. 698.

فاختراع القيام الذاتى للسيارة يقال أنه المسئول عن قيادة المرأة للسيارات ، لقد كان من الصعب لامرأة أن تخرج من السيارة وتديرها · التغير فى هذا الميكانزم أدى الى تغير فى عادات النساء فيما يختص بالمحرك والحياة المنزلية ورعاية الاطفال واستعمال الفنادق) (١) ·

ولما كانت أجزاء الثقافة شديدة التشابك والترابط ، فان أى تغير فى أى جزء منها يحدث تغيرات فى الأجزاء الأخرى من الثقافة ، ومن ثم (فعندما يكون لاختراع تأثير على بعض النظم أو العادات ، لا يتوقف التأثير هناك ، ولكنه يستمر على التوالى كل تأثير يتبع السالف مثل الحلقات فى سلسلة) (٢) · فكثير من التعديلات الكبيرة الحديثة فى المكانات والأدوار قد تبعت التجديدات على المستوى التكنولوجى · والنمو التكنولوجى هو جزء معروف فى الصناعة الحديثة · وآلاف من العلماء يعدون تطبيقات جديدة للعلم الخالص ، وتحدث التغيرات على هذا المستوى يوميا ، وآثارها المتجمعة على السلوك الانسانى لا يمكن التنبؤ بها · (فالصناعة توجد فى مجتمع وهى والمجتمع فى حالة تأثير متبادل مستمر ، ومن السهل رؤية التأثير المتبادل بين المجتمع والصناعة · فالصناعة يدخلها أناس لهم شخصياتهم واتجاهاتهم فيؤثرون فيها ، وكذلك الصناعة تزود المجتمع برجال ونساء قد تأثروا بالعمل فيها ومن خلال تأثرهم هذا تؤثر الصناعة فى النظم الاجتماعية المختلفة · والصناعة والمجتمع يؤثر كل منهما فى الآخر عن طريق مباشر ، فالصناعة تعكس صفات ومميزات المجتمع التى توجد فيه سواء من الناحية المرفولوجية من حيث المواصلات ومن حيث موقعها على نهر أو على خطوط سكك حديدية ، أو من الناحية الفزيولوجية أى من حيث اتجاه المجتمع نحو العمل والادارة والعمال · والمجتمع بدوره وكثير من نظمه يشعر بتأثير الصناعة فيه عن طريق مباشر ، فقيام دوريات عمل مسائية تجعل الزوج والأب يبيت خارج المنزل مما يشكل أثرا خاصا على النظام الأسرى من حيث العلاقات بين الزوج وزوجته وبين الأب وأبنائه · وكذلك أى تغير تكنولوجى أو تغيرات تنظيمية

---

1 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., P.563.
2 — Ibid., P. 568.

ربما تغير وتعيد ترتيب نظام الطبقات الاجتماعية ، وربما تغير النظام الأساسى لطبيعة التركيب السكانى ، وقد يؤدى تغير ما فى الصناعة الى اذابة مجتمع أو نقله الى مكان بعيد اذا انتقلت اليه الصناعة) (١) ٠

وغنى عن البيان انه اذا كان تغير تكنولوجى واحد يحدث سلسلة من الآثار الاجتماعية ، فان الصناعة كتجمع تكنولوجى ضخم اذا دخلت مجتمعا قرويا ، فمعنى ذلك تحول عن الاقتصاد الزراعى الى الاقتصاد الصناعى . والحياة الاجتماعية الريفية البسيطة بكل سماتها المترابطة تعطى مكانها للتحضر العالى ، وهكذا فالتغير من الزراعة الى الصناعة ليس مجرد تغير اقتصادى ولكنه يتضمن تغيرا ثقافيا ضخما ، فهذا التغير الشديد الجارى فى البناء الاقتصادى لابد أن يكون له أثره على الأنماط الاجتماعية فى المجتمع القروى ٠ ومن أهم المشاكل الأساسية التى تتضمنها عملية ادخال هذا التجمع التكنولوجى دفعة واحدة ، هى عملية عدم الاستمرار والدوام فى البناء الاجتماعى للقرية ، ومعنى هذا فقد أشكال المعتقدات المتوارثة التى تعطى الأمان ٠ وهكذا تتأثر الروابط الأسرية ونظام الطبقات وهى أعظم وأهم النظم الاجتماعية وخاصة فى القرية ٠

وفى الحقيقة أن التغير التكنولوجى جعل (الاتجاهات والمعتقدات ، التى ظن سابقا انها التعبير الذاتى لجوهر الطبيعة الانسانية قد تحطم أمام تقدمها ٠ الملكية والترتيب الالهى للطبقات الاجتماعية ، وروح زمالة الحرفة والتقاليد الخاصة بمجالات الجنس ، والنظرة الى الدين والى السياسة والحرب قد شعرت بالهزة ٠ العملية مبتدئة بالتغير الخارجى ومنتهية بالاستجابة الاجتماعية ، من السهل متابعتها وفهمها ٠ خذ مثلا التغيرات العميقة التى حدثت فى الحياة الاجتماعية ومكانة المرأة فى العصر الصناعى٠ فالتصنيع حطم النسق العائلى للانتاج ، وأتى بالمرأة من المنزل الى المصنع

---

1 — Schneider : Op. Cit., P. 353 — 354.

والمكتب ، وفرقت أشغالهن وميزت مكاسبهن · هنا البيئة الجديدة ، والحياة الاجتماعية الجديدة للمرأة هى الاستجابة) (١) ·

اذا كان التغير التكنولوجى له مثل هذه الآثـار الاجتماعية المتشابكة والعميقة ، فهل هناك اتجاه عام يتحرك فيه المجتمع فى ظل الوطأة المستمرة للتغير التكنولوجى · ويحدد ماكيفر هذا الاتجاه بالتخصص ، ويشرح هـذه العملية (بأن التكنولوجيا نفسها تميل فى نفس الاتجاه مكتسبة كفاءة أعظم فى اتمام كل من الوظائف المختلفة التى تطبق وتستخدم فيها اختراعاتها · وفى فعلها ذلك فانها تخصص الوظائف أكثر فأكثر ، ومن ثم تميل لانشـاء تقسيم للعمل متزايد جدا ، ومهما كانت النتائج الاجتماعية المترتبة عليهـا · الأهمية الاجتماعية لهـذا التقسيم للعمـل النامى قد أعطاه دور كيم معالجة كلاسيكية) (٢) ·

والحقيقة أن دور كيم قد انشأ نظرية كاملة علىأساس التغير التكنولوجى وما ادى اليه من تزايد تقسيم العمل ، فلقد عرف دور كيم تقسيم العمل كمغبر هام فى تحديد صفة المجتمع · وقد عامل تقسيم العمل على اساس انه مغبر مقيد من جهة وطليق من جهة أخرى · ففى تحليله الأول حاول أن يبحث فى أثر تقسيم العمل على المجتمع · ويبتدىء تقسيم العمل من أبسط أنواعه عند الأمم البدائية الى التقسيم الشديد فى المجتمعات الصناعية · فتقسيم العمل ازداد مع الزمن · وهذا اتجاه تاريخى يمكن ملاحظته فى المجتمعات مع تقدم التكنولوجيا · عندما اصبح تقسيم العمل كبيرا لوحظت تغيرات واسعة فى السلوك البشرى ، ويقول دور كيم انه عندما اصبح تقسيم العمل عظيما جدا قدم لنا تماسكا عضويا مع التغيرات التالية ، نقص فى المعتقدات وزيادة فى الحرية الفردية وزيادة فى قوانين التعاقد والعلاقات على اساس من الاتفاق الحر بين الشركاء ، وجماعة ذات وحدة متماسكة على اساس من عدم الاكتفاء الذاتى لعدم تجانس الأفراد أدى الى تقسيم العمل ، فكل واحد فى حاجة الى

---

1 — Maclver and page : Op. Cit., P. 553.
2 — Ibid., P. 557.

الآخر ، ولا يمكن وجوده بدون تعاون ، لأن كل فرد يعمل جزءا خاصا من العمل ، وهكذا تحول التماسك الآلى الى تماسك عضوى • وأصبحت الوظيفة السياسية أكثر تخصصا ، وزادت العلاقات التعاقدية بين الأفراد والدولة • وتميز التنظيم الاقتصادى للمجتمع بالملكية الفردية والاقتصاد الفردى والتعاقد التعاونى ونظام الباب المفتوح الذى يسمح لأى فرد بأن يقـــوم بأى عمل • وتضاءل الحب القبلى والتعصب وزاد الاتجاه نحو العالمية) (١) •

وهكذا التحولات السريعة لحضارتنا الصناعية التى تميزت بالتجمع الضخم والمتزايد السرعة فى التكنولوجيا لم يتبعها فقط تغيرات اجتماعية بعيدة المدى شديدة الأثر ، ولكن كثيرا من هذه التغيرات الاجتماعية (بدت وكأنها اما تطابقات ضرورية أو استجابة ملائمة لعالم الماكينة • فى الفئة الأولى يأتى التخصص العالى لكل الأعمال ، والوقت المضبـوط القاد للعمل النمطى ، وتزايد السرعة للرتم العام للحيـاة ، والتركيز والتكثيف للمنافسة واهمال الحرفيين المسنين ، والنمو من ناحية للفنيين ومن ناحية أخرى لعمل الماكينة واتساع الحدود الاقتصادية والشبه معقدة والممتدة للضبط السياسى • وفى الفئة التالية ، ربما تشتمل على مختلف المصاحبات لمستويات المعيشة الأعلى وتبدل بناء ومستويات الطبقات ، ودفن الطرائق الشعبية والمحلية ، وتفكك الجوار وتحطيم نسق العائلة القديم ، وزيادة سيادة الأساليب الحضرية على أساليب القرى ، والتنظيمات الصناعية وخاصة منظمات العمال) (٢) •

---

1 — Durkhime : «Division of Labour»
2 — Malver and page : Op. Cit., PP. 553 — 554.

التخلف الثقافي : CULTURE LAG

وان كان يبدو أن هناك شبه اجماع بين علماء الاجتماع على أن النمو التكنولوجى يتجه الى زيادة تقسيم العمـل على حد تعبير دوركيم ، أو الى زيادة التخصص على حد تعبير ماكيفر ، الا أنهم اختلفوا اختلافا شديدا حول أى النظم الاجتماعية ، أو أى من وجوه الثقافة ، أسبق تأثرا ، أى بمعنى آخر حاولوا اقامة ترتيب معين لتأثير التغير التكنولوجى فى الأجزاء المتخلفة للبناء الاجتماعى ٠

وحول هذا الموضوع أنشأ أوجبرن نظرية عن التخلف الثقافى التى جذبت انتباه علماء الاجتماع من ناحية ، ومن ناحية أخرى دارت حولها دراسات عديدة ، اختلفوا فيها حول مدلول التخلف وأسبابه وحاول كل تفسيره خلال النظرية الاجتماعية التى أنشأها أو يفضلها ٠

وتتلخص فكرة أوجبرن منشىء نظـرية التخلف الثقافى فى أن شطرى الثقافة المادى واللامادى تختلف سرعة استجابتهما للتغيـر التكنولوجى ٠ وهو يعبر عن فكرته بقوله (واضح أن الظروف الاجتماعية تمهد للاختراعات الميكانيكية ، وأيضـا الاختراعات الميكانيكيـة تسبب تغيرات فى الظروف الاجتماعية ٠ ولكن من المرغوب فيه معرفة أى النتائج أكثر عموميـة ٠ لم يحدث تقييما شاملا فى هـذه النقطة ٠ ولكن فى الوقت الحاضر فى العالم الحديث يبدو أنه أسهل وجود بيانات عن تكنولوجيا تسبب تغيرات فى الظروف الاجتماعية ، ومن ثم نحن نميل لتفضيل الفرض القائل بأن التتابع التكنولوجى يسبب التغيرات الاجتماعية) (١) ٠

(ومن أجل هذا الفرض يصنف التراث الاجتماعى الى مادى ٠ وهـو عمليات الانتاج واستخدامه ، ولا مادى وهو يتضمن التنظيم الاجتماعى فى العلوم والفن والفلسفة والموسيقى والرسم والأدب والدين والأخلاق والعادات والأشياء المحبوبة والنحت ، ومهما كان فالملاحظة غير القائمة على الاحصائيات تظهر أن أسرع أنواع التغير فى هذا الوقت فى الجزء المادى من الثقافة وفى

1 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., P. 577.

العلوم ، وأقل سرعة وأقل تغيرا فى القطاعات اللامادية • وكذلك يبدو أن تراكم العمليات فى الوقت الحاضر أكثر نشاطا فى العلوم الطبيعية وفى الثقافة المادية ، وهكذا يبدو أن الجزء المادى والعلمى من الثقافة يتسع وينمو أسرع من الجزء اللامادى) (١) • (أى أن هناك معدلا غير متساو للتغير فى وجوه الثقافة ، اذ أن الثقافة المستقرة التى تبتدىء فى التغير لا تمارس نفس الدرجة فى كل أجزائها فى نفس الوقت ••• فى أجزاء ثقافتنا درجات التغير ليست متساوية • التغيرات التكنولوجية فى الكيمياء والكهرباء هى الآن سريعة جدا أكثر منها فى التغيرات فى انتاج القوة وفى بناء الصناعة • وتميل القوانين للتغيـر ببطء أكثـر ، بينما المحاكم باستعمالها للسابقة فى تقرير الحالات جعلت القوانين أكثر مقاومة للتغير •• أجزاء الحضارة تتحرك الى الأمام أو الوراء ، بسرعات مختلفة ، حقا انه من الصعب نظريا تصور ثقافة ما حيث مختلف الأجزاء تتغير كلها بنفس المعدل ، فاذا كانت مختلف أجزاء الكائن الاجتماعى منفصلة ، وليست متعلقة كل بالأخرى تماما ، سوف لا يكون هناك اهتمام خاص بالمعدلات المختلفة للسرعة لمختلف الأجزاء • مثلا الأويرا ليست متعلقة بشدة بميكنة ثقافة القطن • ومن ثم يمكن لتغير ما أن يحدث فى أى منهما دون أن يؤثر فى الأخرى كثيرا • ومن ناحية أخرى ، تربية الأطفال متعلقة جدا بتشغيل المرأة فى الصناعة ، ومن ثم فأى تغير فى أحدهما سوف يؤثر فى الآخر • اذن ، اذا لم تكن أجزاء الكائن الاجتماعى منفصلة كلية ولكنها مترابطة عن قرب ، فان المعدل غير المتساوى للتغير يكون له أهمية قصوى • واذا كان جزء يتغير بسرعة ، وجزء مرتبط به يتغير ببطء يحتمل جدا نشـأة توترات بين الجزئين المتحركين بلا تساو • تلك سوف تكون الحالة بالتـكيد اذا كانا من قبل فى توازن منسجم ••• التوترات التى توجد بين جزئين مترابطين من ثقافة تتغير بمعدل غير متساو من السرعة ربما يمكن تفسيرها كتخلف فى الجزء الذى يتغير بالمعدل الأبطأ) (٢) •

أى أن أوجبرن ونمكوف يقصدان بالتخلف الثقافى موقفا من سـوء التكيف ، بمعنى أنه حدث تغير فى عنصر ثقافى مادى وأن العنصر الثقافى

1 — Ogburn : «Social change» Encyclopidia P. 331.
2 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., PP. 591 — 592.

اللامادى لم يغير من تكيفه القديم للعنصر الأول ، ومن ثم يصبح تكيفه أسوأ . ومن ناحية أخرى أن هناك تناسبا طرديا بين سوء التكيف وبين شدة الترابط بين العنصرين المتغير الأصلى أو الأول وهو عندهما تكنولوجى والمتغير الأبطأ وهو عندهما اجتماعى ، بمعنى أنه كلما كان الترابط شديدا كلما ازداد موقف سوء التكيف · (والتكيف تبعا لبيئة متغيرة صعب جدا لعدة أسباب ، أولها أن تغير البيئة التكنولوجية من الصعب التنبؤ به وعادة بل ومن النادر أن يكون قد عمل له أى استعداد · فمثلا السيارة عند اختراعها ، ظن أنها ليست عملية ولم يلتفت اليها أحد · وانه عند اختراع الطيارة لم يكن يتصور أنها ستجعل من المدن الآهلة بالسكان هدفا طيبا للطيارة قاذفة القنابل · (هناك اذن تخلف فى التكيف للتغيرات التكنولوجية الجديدة ، وفى هذه الفترات من التخلف يكون تكيف الانسان أسوأ منه قبل حدوث التغير التكنولوجى) (١) · (وفى الواقع ، تخلف التغيرات الاجتماعية وراء التقدم التكنولوجى هى ببساطة حالة خاصة للظاهرة العامة للمعدلات غير المتساوية للتغير فى الأجزاء المترابطة من الثقافة) (٢) ·

ويبدو أن أوجبرن ونمكوف كان يسيطر على تفكيرهما بيئتها الأمريكية ذات الثقافة اللامادية المستقرة نسبيا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تمتاز بسرعة التغيرات التكنولوجية وندرة الاختراعات الاجتماعية ، حتى أنهما انتهيا الى أن العلم والتكنولوجيا ، أحد ، وأهم عوامل الاضطراب الاجتماعى فيقولا (ان العلم والتكنولوجيا ولو أنهما يأتيان بمواد ثقافية أكثر كفاءة ، ومعرفة أكثر ، ومستوى معيشة أعلى ، فانها تنتج اضطرابا اجتماعيا) (٣) · وان كان عقليهما العلمى فى بعض الأحيان يدفعهما الى التحدث عن الاختراعات الاجتماعية وقدراتها على احداث مثل هذا التخلف ، الا أنهما كانا ما يلبثان أن يعودا مرة ثانية الى التأكيد على أن التكنولوجيا هى العامل الأول فى التخلف الثقافى · فمثلا يقولان (التجديدات قد تكون فى الثقافة المادية أو اللامادية · الحرب ، اختراع اجتماعى يمكن أن يسبب اضطرابا

1 — Ogburn «The meaning of Technology» Op. Cit., P. 8.
2 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., P. 597.
3 — Ibid., P. 597.

عظيما فى التغيرات التكنولوجية ، ولكن اعطى انتباها خاصا للتكنولوجيا فقط بسبب مكانها المهم فى الحياة الحديثة • العدد الكبير للاختراعات المهمة الآتية الواحدة تلو الأخرى فى الزمن الحاضر والتى تسبب تلك التغيرات الاجتماعية الواسعة تجعل من التكنولوجيا سببا خاصا وهاما للاضطراب الاجتماعى) (١)•

وهكذا كانت البيئة الأمريكية ذات التغير التكنولوجى السريع سواء على الأمريكين أنفسهم أو على الجماعات المحيطة بهم مثل الهنود الحمر أو نيومكسكو التى عملت عليهم دراسات عن وطأة التغير الناتج عن استخدام مواد الثقافة اللامادية أى التكنولوجيا الأمريكية ، كل هذا جعل أوجبرن ونمكوف يؤكدان دائما أن التكنولوجيا هى العامل الأول فى التخلف الثقافى ، ولو أنهما نظرا بعد الحرب العالمية الثانية الى خارج الولايات المتحدة ، وامتد بصرهما الى آسيا (الصين والهند وباكستان وأندونسيا وماليزيا والعراق وسوريا) ودول أفريقيا (مصر والجزائر ودول شرق وغرب ووسط أفريقيا) لتبين لأوجبرن ونمكوف أن الحركات الاجتماعية التى جرت على أرض هذه المجتمعات أتت باختراعات اجتماعية أدت الى تغيرات جذرية فى بنائها الاجتماعى ، ومن ثم أصبحت هى العامل الأول فى التغير الاجتماعى ، بينما فى كل هذه البلاد وسائل الانتاج الحديث (التكنولوجيا الحديثة) والعلم التطبيقى الحديث الذى حرمهم منها الاستعمار طويلا ، قد جلبا الى تلك المجتمعات ليلحقا بخطوات التغيرات الاجتماعية فى الجانب اللامادى من الثقافة • وهكـذا تعتبر هذه المجتمعات التخلف الثقافى فيها تكنولوجيا وليس ماديا •

ولكن بارنز Barnes فى دراسته عن التخلف الثقافى لم يقف عند حد المجتمع الأمريكى ، وما يحيط به من جماعات ، مثلما فعل أوجبرن ونمكوف ، بل وسع نظريته حتى شملت تاريخ الانسانية ، وقدم دراسة تطورية ممتعة عن التخلف الثقافى مستخدما المنهج التاريخى ، وبذلك استطاع أن يعرض ألوانا من التخلف الثقافى التى كابدت وطأتها المجتمعات الانسانية ، مرة تظهر تخلفا تكنولوجيا وأخرى تخلفا اجتماعيا ، وثالثة يكون هناك توازن وانسجام بين كل من وجهى الثقافة • (فخلال معظم تاريخ الانسانية ، كان التفكير الاجتماعى

---

1 — Ibid., P. 597.

والنظم الاجتماعية متلائمين مع علم التكنولوجيا الذى كان موجودا فى أى عصر · فقط فى حالة اليونان والرومان وعصرنا كان هناك مثل هذا التخلف بين الآلات والنظم الاجتماعية · فى الفترة الكلاسيكية ، وخاصة بين يونانى اثينا والاسكندرية ، النظم الاجتماعية والفلسفة تقدمت أكثر بكثير من العلم والآلية ، بينما آليتنا هى سابقة لحاضرنا الى ما لا نهاية · فشل الرومان واليونان فى تحسين العلم والمخترعات حتى تحافظ على المسافة مع نظمهم الاجتماعية ، كان السبب الأكبر فى أزمة الحضارة الكلاسيكية) (١) · واضح أنه فى هذه الفقرة يشير الى أن هناك عصورا كان هناك مواءمة وانسجام بين كل من عناصر الثقافة المادية واللامادية ، ويبدو أنه يشير الى عصور ما قبل الحضارة اليونانية والرومانية ، تلك الحضارتين اللتين تميزتا بتخلف تكنولوجى ·

ثم يعرض بارنز مرة ثانية نوعا من التخلف التكنولوجى الذى كان يصاحب التطور الاجتماعى العظيم ، الذى حدث فى مطلع العصر الحديث ، فى النظم الاجتماعية · (ففى مطلع العصر الحديث كانهناك دفعا أكثر للتغيرات فى النظم الاجتماعية ولأنماط جديدة من التفكير الاجتماعى أكثر مما كان يتقدم العلم والاختراع بين سنة ١٥٠٠ وسنة ١٨٠٠ · عندما أتت نهاية العصور الوسطى ، وابتدأت الأزمنة الحديثة ، هذه التغيرات كانت أصلا هى نتاج الطبقة المتوسطة ، فلقد أنكرت تلك الطبقة معظم أنماط النظم الاجتماعية والتفكير الاجتماعى للعصور الوسطى · ولقد ساعدت الدولة وحولتها من المطلقة الى النيابية · ولقد نمت أفكار القانون الطبيعى التى وضعت الفقه والقانون وراء حماية الملكية ··· وبهذا الأسلوب التأثير الاجتماعى الذى بين سنة ١٥٠٠ وسنة ١٨٠٠ كان يشجع بقوة تحول وتغيير النظم الاجتماعية والتفكير الاجتماعى) (٢) · وفى هذه الفترة يعرض لنا بارنز تغيرات اجتماعية واسعة فاقت التغير التكنولوجى فى هذا العصر ، أى أنه كان هناك تخلفا تكنولوجيا ·

ثم يعرض بعد ذلك بارنز التخلف الثقافى اللامادى فى القرنين التاسع عشر والعشرين عندما (ابتدأت الاتجاهات الثقافية والنظامية للعصر الحديث

---

1 — Barnes : «Social Institutions» Op. Cit., P. 55
2 — Ibid., P. 55

عند الكل ، تؤيد وتشجع النمـو فى كل العلـــوم الطبيعيـة والاختراعات التكنولوجية ، ولقد أصبح مفهوما أن العلوم تحمى وتثرى الحياة الانسانية ، وتزيد من احتمالات الربح المالى فى الأعمال وفى تشغيل العمال طبقا لنظام الربح والرأسمالية ... ولهذا الطبقات المالية ورجال الأعمال القوا بكل قوتهم الهائلة فى المحافظة على الأشياء كما هى فى حياة النظم الاجتماعية . ذلك ما فعلوه ، وفى نفس الوقت أصبحوا أشد اعجابا بأسلوب التقدم فى العلوم والتكنولوجيـا . ولهذا منـذ سنة ١٨٠٠ الى الوقت الحاضر ، الجماعات الاقتصادية السائدة فى المجتمعات الحـديثة مالوا الى مقاومـة التغيرات الاجتماعية والنظم الاجتماعية ، بينما فى نفس الوقت شجعوا التقدم فى العلوم والتكنولوجيا ، وذلك هو السبب الأكبر لهذه الحالة الغريبة والمنذرة بالخطر التى نواجهها اليوم ، وأكثرها أهمية عدم توازى تكنولوجيا وعلـــوم اليوم ، وميراث من النظم الاجتماعية والتفكير الاجتماعى زمنة فى معظم الأجزاء منذ حوالى سنة ١٨٠٠ أو قبل ذلك . فالظروف فى عالمنا الحديث ، منذ أكثر من قرن قد عملت على تقدم عظيم فى العلـوم والتكنولوجيا ، وثباتا فى النظم الاجتماعية(١)) . وهكذا يعرض بارنز لونا من التغير التكنولوجى الواسع المدى فى مقابل بطء شـــديد فى النظم الاجتماعية مما جعل العالم الغربى الرأسمالى يعيش فى ظل وطأة شـديدة من التخلف الثقافى اللامادى على حد قوله .

ومن ناحية أخرى يعرض بارنز المشكلة من وجهة نظـر علم الاجتماع السياسى أو بمعنى آخر من وجهة معتقداته أو أفكاره عن التنظيم الاجتماعى . فهو يبدو على عكس أوجبرن ونمكوف المتأثران ببيئتهما الأمريكية فارجعا وطأة التخلف الثقافى الى مجرد سرعة التغير التكنولوجى وموقف سوء التكيف الناجم عن التخلف فى متابعة التغيرات التكنولوجية . ومن ناحية أخرى يميلان الى الاصلاح بادخال تعديلات أو مواءمات لعملية التغير التكنولوجى لتحسين التكيف اذ عندهما (كلمة التخلف تتضمن أن السبيل الأحسن للعمل هو اختراع التخلف فى المتغير الذى لم يتغير أو الذى يتغير ببطء أكثر ، حتى يكون فى

---

1 — Barnes : Op. Cit., P.P. 54 — 55.

تكيف أحسن مع المتغير الذى يتغير) (١) · (وبعد ازالة التخلف فى أحد المتغيرين واقامة تكيف آخر نفس الصعوبة فى التقدير تنشأ بالنسبة للقيم بمعنى ، لأى الشيئين التكيف أحسن عن الموقف السابق) (٢) · (اذ أن عندهما لا يتفق كل الأشخاص على أى الجزئين من الثقافة يكون حسن التكيف) (٣) ·

ولكن بارنز يبدو واضحا جليا فى مهاجمته العنيفة للنظم الاجتماعية الموروثة منذ أكثر من قرنين فى قوله (استحدثت الطبقة المتوسطة بالتحامها مع وزراء البروتستانت ، والنظام الرأسمالى ، تفضيل ومدح الربح المالى ، ولقد أخذت دورا نشيطا فى الاستعمار وفى خلق الامبريالية الحديثة وأنشأت نمطا ملائما من نظرية سياسية واقتصادية لتبرر النظام البرجوازى الجديد ، وأوجدت فلسفة الحرية السياسية لتبرير الثورة ضد امتيازات الارستقراطية ، ودافعت عن بروز الحريات المدنية مثل حرية الكلام والطباعة والاجتماع والدين وما شابه ذلك · وفى الاقتصاد عظمت ومجدت حرية التجارة ، واعفاء وحصانة الأعمال والتجارة من التنظيمات الحكومية الواسعة · معظم هذه التجديدات فى فلسفة السياسة والاقتصاد قد نفذت عند نهاية القرن الثامن عشر · وهكذا مال هذا النسق بعد ذلك لتركيز المقاومة للتغير) (٤) ·

وتتضح نظرته للتخلف الثقافى من وجهة نظر مقاومة أصحاب المصالح المكتسبة فى قوله (التناقض الموجود بين عالمنا العلمى والتكنولوجى وبين نظمنا الاجتماعية وتفكيرنا الاجتماعى ذو أهمية قصوى فى أى عمل لفهم الأزمات فى النظم الاجتماعية والمشاكل الاجتماعية فى عصرنا · فالمشاكل الاجتماعية دون استثناء هى ابراز للهوة بين التكنولوجيا والنظم الاجتماعية · فبينما يتعذب الملايين يطلبون النجدة من سوء التغذية وسوء الاسكان ، تدفع الحكومة للفلاحين ليحرثوا تحت القمح والقطن حتى يمكننا أن نحصل على الأقل من الأكل والملبس ، ويعيش ملايين على حد الكفاف فى الوقت الذى فيه المصانع والمزارع اذا استعملت جيدا تخرج مقدارا عظيما من الأكل والسلع · قدراتنا

---

1 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., P. 595.
2 — Ibid., P. 595.
3 — Ibid., P. 594.
4 — Barnes : Op. Cit., P. 55.

الانتاجية مناسبة لاعطائنا كل ما نحتاجه فى مجال الطلبات الانسانية • ولكن عملية التوزيع فى المجتمع لا تمتلك شيئا مثل التسهيلات المتاحة لوضع السلع تحت أمر المستهلكين ، التناقض يمكن شرحه بسهولة ، الجانب الانتاجى من حياتنا الاقتصادية يقوم أساسا على العلوم والآلية فهو نسبيا حديث جدا وكفء ، بينما الأفكار والخبرات التى تدير التوزيع والاستهلاك هى بالعكس ، اظهارا وانعكاسا لحياة نظمنا الاجتماعية والتفكير الاجتماعى هو المتأخر جدا وغير كفء(١) •

وهكذا بينما يتأثر أوجبرن ونمكوف بالبيئة الأمريكية المتميزة بسرعة التغيرات التكنولوجية والبطء النسبى فى جانب الثقافة اللامادية الذى يسبب عمليات من سوء التكيف ، نرى بارنز يعرض التخلف الثقافى عرضا تاريخيا . فان تالكت بارسونز Parsons يعرضها بطريقة أخرى من خلال نظريته فى الدوافع والقيم ، ومن ناحية اخرى عن تأسيس النظم الاجتماعية وما ينشأ عن ذلك من توترات • ويلخص فكرته عن مفهوم التخلف الثقافى بقوله (واضح أن أحد الملامح الرئيسية لانتظامية العلم وتطبيقاته هو احداث تيار مستمر من عوامل التغير فى النظام الأجتماعى ، المشكلة الحالية هى كيف يؤثر هذا التيار من التجديد فى أجـزاء من النسق الاجتماعى ، التى ليست متضمنة مباشرة فى عملية تقديمه ••• ان انتظامية كلا نموذجى العملية تخلق توترات فى بيئاتهما المباشرة ، انه بلا شك تؤخذ على أنها شىء مفضل لأنه فى مفاهيم نسق القيم السائد بيننا ، التقدم العلمى شىء حسن ، كما أن العمليات التى تنجـز التقدم أو تستخدم نتائجه تصبح سهلة ومقبـولة تلقائيا • وبالعكس هناك توترات ومقاومات ، بعضها يتعلق بتخلف الاتصالات بين المتخصص والعوام ، والبعض بالامتيازات الخاصـة التى يطلبها الباحث أو العـالم التطبيقى ، والبعض لتدخله فى أساليب قائمة لعمل الأشياء أو التفكير ، والبعض يتعلق بحقيقة أنه يقدمتغيرات اذا استخدمت تتطلب هجر ونبذ الأساليب القائمة التى ترتبط بها مصالح مكتسبة) (٢) •

---

1 — Ibid., P. 51.

2 — Parsons, T. : «The Social System» The Free Press Glencoe Illinois, 1951 P. 505.

ويعرض بارسونز بعد ذلك تفسيرا للمشكلة بطريقة تكاد تتفق مع تقسيم أوجبرن للثقافة الى مادية ولا مادية ، ولكنه يبتعد عن هذه المصطلحات الى مصطلحات أخرى تتفق مع نظريته عن الموجهات الاجتماعية فيقول (الانعكاسات للتغيرات التى قدمها التقدم العلمى والتكنولوجى يمكن متابعتها خلال مجريان رئيسيان · أولهما يبتدىء مع بناء توجيهات الأدوات الاقتصادية The economy of Instrumental Oriantations التى فى داخلها يتوطن الدور الذى تنشأ فيه التغيرات وتستقبل أول تطبيقاتها · الثانى يختص بالوجوه الثقافية والأنساق الاعتقادية وأنساق الرموز التعبيرية ومن ثم المكافآت ، التى معها تكاملت الأطوار المبكرة لعملية الترشيد) (١) · ثم بعد أن قسم بارسونز الثقافة الى هذين المجريين اتجه الى دراسة كل مجرى دراسة تفصيلية · اذ يعتبر أنه يمكننا أن نميز ثلاث نماذج رئيسية للانعكاسات فى مركب الأدوات instrumental complex .

الأول : اعادة بناء الأدوار المهنية ذاتها · هذا له ناحية ايجابية ، فاذا صنعت أدوار جديدة بفضل المعرفة والتكتيك الجديد ، أو أن الأدوار القديمة أعيد تجديدها بالنسبة للمحتوى التكتيكى ··· بالطبع أن هناك ميل لانشاء هذه الأدوار الفنية بتوسع ··· ولكن الاعتماد المتبادل بين الوظيفة الفنية لدور والتجديد فى توقعات الدور فى مصطلحات من توجيه القيمة Value-orientation مقفل بدرجة كافية حتى أنه أصبح من الضرورى عمل مواءمات وتكيفات كثيرة جدا للتغيرات فى المحتوى الفنى · هناك كثير من المناسبات التى فيها دور أستاذ علم الاجتماع لا بد أن يختلف عن دور أستاذ كلاسيكيات حتى فى نفس الجامعة ذات البناء الاجتماعى والتقاليد الثقافية الواحدة كلاهما تدريسه وبحوثه لابد وأن تختلف · الوجه الآخر لخلق أدوار جديدة هو الارجاع للأدوار القديمة ومحتوى الأدوار المهجورة · ذلك ما هو معروف باسم ظاهرة البطالة التكنولوجية لأنه لأسباب مختلفة من الصعب للشخص ذاته أن يكتسب المعرفة والتكتيك الجديدين ، وعادة جدا قبل أن يجد حلا للمشكلة يلقى العزل العادى لاحالته على المعاش ···

---

(1) Ibid., p. 505.

النمـوذج الثانى : تتوقف الانعكاسـات فى مركب الأدوات على وطأة التغيرات التكنولوجية على صفات أو خصائص التنظيمات أكثر منها على أدوار معينة • فهناك نواح كثيرة ممكنة لمثـل هذه الوطأة ، ولكن أهمها ، هى حقيقة أن التقدم التكنولوجى دائما يؤدى الى زيادة مقصودة فى تقسيم العمـل ، والمتطلبات المصاحبة من زيادة التنظيم المتعمد ••• التغير فى بناء التنظيمات ، مثل التغير فى المحتوى لأدوار معينة ، يصنع توترات ، هناك مصالح مكتسبة معقدة فى المحافظة على منظمة كما هى ، لا بد من التغلب عليها •••

النمـوذج الثالث : انعكاسات التغيـــر التكنـولوجى على الأدوات الاقتصادية ، هذه تتعلق بتركيب نسق التسهيلات ومن خلاله على بناء القوة • ادخال تسهيلات طبيعية جديدة فى شكل مهمات وآلات وما شابه ذلك ، هـو واضح ••• ولكن بالنسبة للنظام الاجتماعى مازال هاما جدا ذلك التغير فى النماذج الهامة للمهارة والخبرة ، وفى الادارة لنماذج معينة من المنظمات(١) •

ثم يقدم بارسونز التأثيرات على الوجه الآخر الذى يختص عنده بالثقافة والانساق الاعتقادية وأنساق الرموز التعبيرية والمكافآت بعبارة تتضمن معنى يدل على أنها تغيرات تالية لما يحدث فى الأدوات الاقتصادية ، أى أن التأثير التكنولوجى يحدث أولا فى مركب الأدوات الاقتصادية ثم ينتشر منها على بقية وجوه الثقافة اذ يقول (يمكننا الآن أن نتحدث عن الانعكاسات على بناءات التكيف adaptive structures خارج مركب الأدوات • بمعنى أن هـذه التغيرات تحدث نتيجة للتغير التكنولوجى فى مركب الأدوات الاقتصادية ، وهذه التغيرات التكيفية ما هى الا استجابة للتغير • ويذكر (أن أهمها هـو نسق القرابة وأن ما أدى الى عزل الأسرة المزدوجة هو التخصصية والبيروقراطية التى أدت الى زيادة الأدوار المهنية ، وأن عمليات ضم الشخصية فى داخل النسق المهنى يجب أن تكون مستقلة نسبيا عن التماسك القرابى • هذا العزل للأسرة المزدوجة بدوره كان له انعكاسات على الدور النسائى •• ومحتمـل زيادة حدة فصل الدور الجنسى ، وأن له علاقة كبيرة بانبعاث ظواهر مثل نمط الفتنة • ولقد ازدادت التوترات على الدور النسائى ومن هنا أنتج أنماطا معينة

---

1 — Ibid., PP. 506—509.

من توترات ردود الأفعال ، وبالتأكيد لها علاقة مع التناقص السريع لمعدل المواليد حتى الآن · هذه العوامل بدورها يحتمل أن يكون لها انعكاسات أبعد على عمليات التنشئة الاجتماعية للأطفال · وجه آخر هام جدا هو التغير فى تكنولوجية ادارة المنزل باستخدام التكنولوجيا لجعل عملية ادارة المنزل أسهل ··· ثم يقرر أن انعكاسات التغيرات التكنولوجية على المنظمات الدينية فى البناء الاجتماعى تتبعها أكثر صعوبة · ثم يذكر الرموز المعبرة ذات العدد والآلات الذى أتاحها النمو التكنولوجى مثل السيارة والثلاجة وآلة التسجيل والتليفزيون حيث تعبر عن المكانة ، اذ أن عدد الخدم كتعبير عن المكانة فقد دوره ·ثم يتجه الى شرح أثر عملية التغير التكنولوجى فى اعادة تنظيم مستمرة لنظام المكافأة ··· فقد نشأت أدوار جديدة اكتسبت أهمية استراتيجية ، أو أدوار قديمة أصبحت مهجورة وانخفضت أهميتها نسبيا ··· وأن هذا يؤدى الى حدوث توترات أكثر من أى صراع مصالح ، وتعتبر هذه العملية هى العامل الأول فى ما يسمى صراع الطبقات) (١) ·

وكذلك ميرل يذهب فى دراسته للتخلف الثقافى مذهبا يكاد يشبه ما ذهب اليه تالكت بارسونز ، الا أن ميرل بدلا من أن يجعلها مجريين ، فانه يجعل مراحل التغير الناتج عن التجديدات التكنولوجية على ثلاث مراحل ، كل مرحلة تتخلف وراء الأخرى فعنده (النظام الاقتصادى عادة يشعر بالوطأة الأولى للتغير الناتج من تقدم التكنولوجيا · هذه النظم هى الأنماط المنظمة للعلاقات الاجتماعية الموجودة لانتاج وتوزيع السلع والخدمات · فالتغيرات الشاملة فى النظم الاقتصادية تبعت سلسلة التغيرات التكنولوجية والاجتماعية المعروفة باسم الثورة الصناعية ـ أساس صنع الحياة تحرك من الزراعة الى المصنع ومن الريف الى المدينة ، وتغير حجم المشاريع الفردية وأصبح أسلوب جديد فى العمل والمال ضروريا لتشغيل التجديدات التكنولوجية · ففى العالم الحديث المؤسسات الكبيرة هى مثل للتكيف البنائى لسلسلة طويلة من التغيرات التكنولوجية) (٢) · ثم يأتى عنده بعد ذلك النظم الاجتماعية

---

1 — Ibid., PP. 510—513.
2 — Mirrell : Op. Cit., P. 471.

(اذ الانماط المنظمة للعلاقات المشتملة على الأسرة والكنيسة والمدرسة والحكومة هى الثانية التى تشعر بوطأة التغير الاجتماعى · ذلك صادق خاصة ببناء النظام ، وأقل صدقا للمفهوم أو مجموعة القيم ، التى تتغير ببطء كثير) (١) · ثم المرحلة الثالثة أو العنصر الذى يشعر أخيرا بالتغير أى يكون المتخلف الأخير عنده هو القيم الاجتماعية · (فالقيم التى فى قلب النظم هى الأهداف التى من أجلها يكافح الناس ، والنهايات التى يبحثون عنها ، فالزواج بواحدة قيمة اجتماعية فى قلب الأسرة المسيحية ، والحرية هى أساس النظم السياسية والاقتصادية ، فمعظم القيم الأساسية تتجمع حول الأنماط النظامية ، تلك العناصر الأيديولوجية تتغير ببطء جدا) (٢) ويختم ميرل هذا التصنيف بقوله (وهكذا العناصر فى مجتمع لا تتغير بنفس معدل السرعة) (٣) ·

ولكن ميرل يعترض على أوجبرن فى أنه ليس كافيا فقط القول أن مختلف عناصر المجتمع تتغير بمعدلات مختلفة · بل يرى أن توضح بعض العوامل التى تعطى النشأة لهذا الظرف ، لأن مثل هذه المعرفة مهمة لفهم المشاكل الاجتماعية والضبط الاجتماعى · وتنشأ هذه العوامل بدرجة كبيرة ، وان لم تكن كلية ، من طبيعة الشخصية ، التى هى جزء من نتائج المجتمع والثقافة · وملخص العوامل التى أشار اليها ميرل هى (نزعة المحافظة على الشخصية الناجمة عن عملية التنشئة الاجتماعية التى تكسب كل فرد اتجاهات وقيم وأهداف ومعايير مجتمعة ، وأى تغيير يهدد أو يبدو أنه يهدد هذه القيم يصبح تهديدا للشخصية ذاتها · والعامل الثانى هو الاتجاهات نحو مختلف التغيرات فقد تكون هذه الاتجاهات تشجع التغيرات أو ترفضها ، ويضرب لذلك مثلا بالمجتمع الأمريكى الذى يشجع التغيرات فى الميدان التكنولوجى ويرفض التجديدات فى النظام الاقتصادى والتى ينظر اليها من الشك الى العدائية الشديدة · وأن هذا الاختلاف يساهم فى اختلاف معدل التغير بين العناصر المختلفة · ثم يذكر أن العامل الثالث هو المصالح

---

1 — Ibid., P. 472.
2 — Ibid., P. 472.
3 — Ibid., P. 472.

المكتسبة التى تحاول أن تؤخر التجديد الذى يهددها) (١) · الا أن ميرل فى حذر العالم العارف بشدة تعقد العملية الاجتماعية ينهى بحثه هذا بقوله (قد لخصنا عن عمد نمط التغير الاجتماعى الناشىء عن العوامل التكنولوجية · هذه العملية لا تحدث أبدا فى مثل هذا النموذج المحكم ، فالمجتمع هو معقد جدا حتى أن أى نمط لا يمكنه أن يصف الموقف الحادث ··· فالتغير الاجتماعى هو مفهوم ديناميكى ويتضمن مجالا واسعا من تعديلات المكانة والدور على مدار فترة من الزمن · ولهذا تعطى كثيرا من العوامل المختلفة النشأة للتغير الاجتماعى حتى أنه من المستحيل عزل أى سبب مفرد أو كل العوامل المحيطة · ولقد ذكرنا فقط واحدا من عديد النتائج العملية الممكنة التى تنشأ من تقديم تجديد تكنولوجى) (٢) ·

أما ماكيفر فانه ينعى على استخدام مفهوم التخلف الثقافى فى معظم الدراسات الاجتماعية · بدون تحليل مناسب مما أدى الى خلط كثير فى الكتابات الاجتماعية اذ قد استخدم الاصطلاح (لكل أنواع اللاتوازن أو سوء التكيف الناشىء فى داخل عملية التغير الاجتماعى · بدلا من تحديدها لتفاوت الفاعلية داخل النسق نفسه) (٣) · بل انه يعترض على معنى التخلف عند أوجبرن الذى وصل اليه عن طريق قسمة الثقافة الى مادى ولا مادى ، وأن اللامادى تابع فى تغيره للمادى ، بقوله (عندما ننسب التخلف نحن نعنى أن شيئا ما يقع وراء أو يفشل فى المحافظة على الخطوة مع شىء آخر اذن ماذا يتخلف وراء ماذا ؟) (٤) · وأن مجرد توجيه هذا السؤال يستلزم الأمر (أن يكون لدينا مستوى للقياس ممكن التطبيق لكل من المتخطى والمتخلف · وحيث لا يكون متاحا مثل هذا المستوى لا يمكننا الحديث بصواب عن تخلف · وحيثما يفشل جزء واحد أو ناحية واحدة من نسق انتاجى

---

1 — Ibid., P. 47.

2 — Ibid., P. 479.

3 — Maelver and Page : Op. Cit., P. 573.

4 — Ibid., P. 575.

فى الارتفاع لدرجة كفاءة جزء آخر أو ناحية أخرى ، يكون اصطلاح تخلف لائق ومناسب ، ولكن بما أن السؤال موضع البحث ليس من نوع الكفاءة المقارنة ، فاستعمال هذا الاصطلاح يصبح غامضا ومبهما ، وربما يؤدى الى متضمنات خاطئة) (١) · ويرى ماكيفر أن حل هذه المشكلة تأتى عن طريق (التمييز بين العوامل الثقافية والتكنولوجية ومن ثم يمكننا تحرير فروض التخلف من الخلط ونعطيها استعمالا أكثر ثراءا) (٢) ·

ومن ثم اتجه ماكيفر الى وضع تقسيم جديد يتفق مع وجهة نظره ، وأعطى هذه التقسيمات اصطلاحات جديدة تعبر عن أنواع التخلف من ناحية ومن ناحية أخرى محددة لأنواع العلاقات بين أجزاء البناء الاجتماعى والتغير التكنولوجى فهو يقسمها الى تخلف تكنولوجى Technological Lage وحجر تكنولوجى Technological restraint.

ويعنى بالتخلف التكنولوجى (حيثما تفشل أى واحدة من الوظائف المتساندة فى داخل عملية تكنولوجية ، تفشل فى انجاز أو حفظ درجة الفاعلية أو الكفاءة المطلوبة لتعاونها المنسجم مع الباقى ، حتى أن الانتاجية لكل العملية تتعطل أو تتأخر أو تتوقف عند هذه النقطة · ومثلا على ذلك هو الفشل المتكرر للادارة لحفظ كفاءة كلية عندما تتسع شركة فى المجال ، وخاصة عندما تصبح جزءا من ائتلاف ــ يعتمد مقياس التخلف التكنولوجى على قدرتنا فى قياس الكفاءة النسبية لمختلف العوامل المتبادلة القيام بالوظائف وكذلك لبيان فشل عامل معين فى المحافظة على السرعة) (٣) ·

ويقصد ماكيفر بالحجر التكنولوجى ، عندما تعرقل أو تمنع التدبيرات المرسومة لحماية بعض المصالح القائمة ، تقديم أدوات أو أساليب أكثر فاعلية وكفاءة ، أو الانتفاع بمنتجات أكثر كفاءة · ويميز ماكيفر أنواعا مختلفة من الحجر التكنولوجى ، وهى :

---

1 — Ibid., P. 575.
2 — Ibid., P. 574.
3 — Ibid., P. 576.

١ ـ حجر تحدده المصالح البيروقراطية ، هنا قوة القصور الذاتى ، والتقاليد ، أو مقاومة نظام قائم لطرق أو أساليب فنية أكثر كفاءة ٠

٢ ـ حجر تحدده المصالح الاقتصادية المحصنة عندما تواجه تهديدا لما تحصل عليه من أرباح ومميزات أخرى ، ومن ثم تعارض الاستغلال للعمليات الجديدة ٠ أو المناهج الجديدة ٠ وهو يختلف عن النمط الأول فى أن المعارضة تنبع بصفة خاصة عن الاعتبارات الاقتصادية ٠

٣ ـ حجر تحدده المصالح الثقافية ، هنا الخط الرئيسى لمعارضة النمو التكنولوجى تحدده تقاليد أو معايير القادة والجماعات والمجتمعات أو اعتبارات أخلاقية خاصة أو مذهبية ٠ وهنا يميز ماكيفر بين نمطين ، نمط فيه ثقافة المجتمع تقاوم التجديد التكنولوجى ، وثقافة أخرى تكون تقاليدها تشجع التجديد ٠ ويفرق أيضا ما كيفر فى النمط الأول الذى لا يشجع على التجديد أنواعا فرعية أخرى تذهب من التطرف فى المقاومة ـ حيث تكون الثقافة متزاوجة مع نسق تكنولوجى مختلفا تماما ، ثم يفرض من الخارج على هذا المجتمع تكنولوجيا جديدة ٠ وهكذا يحدث تدمير للوسط الذى تعبر ثقافة المجتمع عن نفسها من خلاله ـ الى المقاومة اليسيرة حيث تكون الثقافة ذات مستوى أعلى ولديها قدرة على التمييز بين النسق التكنولوجى والتقاليد والمعايير والقيم ، وتكون التجديدات قدمتها حكومة نفس المجتمع ، وهنا تكون الوطأة أقل ٠ والنمط الثقافى الذى تشجع ثقافته على التجديد ، يكون لديه استعدادا للمواءمة مع التجديد ٠

٤ ـ ثم يقدم ماكيفر نمطا آخر تحت اسم الصدام الثقافى وهو لايقصد به الصدام الثقافى حيث تحدث الصراعات المذهبية والأيديولوجية ، ولكن يقصد به صراع القيم والمذاهب المتصارعة أو أساليب الحياة عندما تحتك فى داخل نفس المجتمع ٠ فالخوف من تكنولوجية غريبة هو ليس ببساطة خوفا من أنها سوف تقلب القيم القديمة ، انه أيضا خوف من أن التكنولوجية الغريبة سوف تقدم قيما غريبة ومستويات وأهداف مختلفة ، أى أن المقصود بهذا المفهوم هو الصراع الذى يحدث داخل مجتمع ما بين نمطين ثقافيين كاملين كل منهما يحيط بأسلوب كامل للحياة ، أحدهما ثقافة المجتمع الأصلية والآخر جلب أو فرض عليه من الخارج ، وتزيد حدة الصراع اذا كانت الثقافة الأصلية متحدة مع الجماعة السائدة (١) ٠

---

1 — Ibid., pp. 576—580

نقد أفكار التخلف الثقافى

وهكذا يتبين من العرض السابق للدراسات التى دارت حول مسألة التخلف الثقافى أن هذه المسألة ذات شقين ، الأول فيما يختص بمفهوم التخلف نفسه ، كما صاغه أوجبرن من أن العناصر الثقافية اللامادية تتخلف وراء العناصر المادية ، ووضح أن علماء الاجتماع قد اختلفوا حول هذه المسألة ، فبعضهم قرر بأنه لا يمكن الادعاء بأن العناصر اللامادية تتخلف وراء العناصر المادية ، وبعضهم أيد أوجبرن فيما ذهب اليه • وآخرون لم يرفضوا الفكرة ولم يؤيدوها ، ولكن تركوا موضوع المساجلة حول مفهوم التخلف من حيث أسبقية وجوه على وجوه من الثقافة ، الى محاولة توضيح التأثيرات الاجتماعية التى تكابدها النظم الاجتماعية نتيجة النمو التكنولوجى وهى الشق الثانى من المسألة • وحول هذه النقطة أيضا اختلف علماء الاجتماع ، فمنهم من حاول ابراز أن النظم تختلف فى أسبقيتها فى التأثر بعوامل التغير التكنولوجى وأن أقربها الى التغير هى أكثرها ارتباطا بالعناصر التكنولوجية ، مشايعين فى ذلك أوجبرن ، وأعادوا بذلك الى الأذهان نظرية الانتشار فى دوائر وأن أكثر المناطق تأثرا هى المنطقة المباشرة لمركز التغير • وبعضهم ابتعد عن هذه الفكرة وآثر الأمان العلمى ووضح آثار التغير فى النظم الاجتماعية دون التعرض لمسألة الارتباط وشدته بالعناصر التكنولوجية. ولكن نظروا الى المسألة من زواية أخرى وهى مدى قدرة النظم الاجتماعية على المقاومة ورتبوا النظم حسب شدة مقاومتها ، وآخرون تركوا كل هذا وذهبوا الى محاولة وضع مفاهيم جديدة تشرح عملية التأثير الاجتماعى وعلاقتها بعمليات المقاومة المنبعثة من النظم الاجتماعية •

وفى الحقيقة ان مفهوم التخلف الثقافى كما صاغه أوجبرن هو صادق ولكن بالنسبة لمكان وزمان معين وبعملية معينة وهو التغير التكنولوجى فى المجتمع الأمريكى • حيث التغيرات التكنولوجية سريعة جدا والنظم الاجتماعية بطيئة جدا ، كما وضع ذلك بارنز فى دراسته المتعة عن النظم الاجتماعية الأمريكية وتخلفها ، ومن ثم فان مفهوم التخلف الثقافى اذا درس من الناحية العلمية ، بمعنى ، على أساس أنه نظرية اجتماعية يمكن أن تصدق كقانون

اجتماعى فان الأمر يختلف تماما ، اذ أنه لا يمكن الادعاء بأنه دائما العناصر اللامادية تتخلف وراء العناصر المادية من الثقافة ، اذ أن هذا الأمر لا يصدق على المجتمعات التى تجرى فيها الآن تغيرات اجتماعية جذرية فى بنائها الاجتماعى نتيجة للحركات الاجتماعية التى أدت الى ازالة معظم النظم الاجتماعية القديمة وأحلت محلها نظما أخرى ، ثم جلبت التكنولوجيا الى تلك المجتمعات بعد ذلك استجابة لهذه النظم الجديدة ، أى أن التغير فى النظم الاجتماعية ووجوه الثقافة اللامادية كان سببا فى التغير التكنولوجى فى تلك المجتمعات ٠

وكذلك عندما قرر أوجبرن أن العناصر اللامادية تتغير متأثرة بالتغير التكنولوجى ، لم يدرس المسألة الا من جانب واحد ولم يعطها النظرة الشاملة ، بمعنى أن أوجبرن توفر على دراسة تأثيرات التغير التكنولوجى على وجوه الثقافة اللامادية أو على النظم الاجتماعية ، ولم يحاول أن يكرس وقتا مماثلا لدراسة العوامل التى أدت الى هذا التغير التكنولوجى ؛ وحتى هذه العملية عندما تعرض لها عرضا أرجعها الى التراكم التكنولوجى ولم يتخط هذا الى دراسة العوامل التى أدت الى هذا التراكم التكنولوجى ٠ وواضح أن وراء هذا التراكم التكنولوجى عمليات اجتماعية هى التى أدت الى ذلك التراكم ٠ والغريب أن أوجبرن نفسه قد كرر فى أكثر من مقال له أن الحاجة أم الاختراع ، والحاجة هنا ما هى الا قوى اجتماعية تعمل على هذا التراكم التكنولوجى ٠

وأكثر من ذلك أنه قرر (ليس هناك شىء أصلى اذا ألغيت مسألة الدرجة فأى تغير يمكن أن يختار قد وضعه شىء آخر فى حركة ، والذى كان أيضا فى حركة ، وهكذا حتى نعود الى ما يسمى الأسباب اللانهائية ٠ بالمثل بالنسبة للتغيرات فى التراث الاجتماعى ككل ٠ لا يمكن اثبات الأسبقية سواء للثقافة المادية أو اللامادية ، لأن التغيرات فى الثقافة اللامادية ربما تكون متأثرة بواسطة تغيرات فى الثقافية المادية ، التى كانت من قبل تعزى الى تغيرات فى الثقافية اللامادية ، التى كانت سابقا تعزى الى تغيرات فى الثقافية المادية ، وهكذا ٠ فعندما كل أجزاء الثقافة المتداخلة العلاقات

تكـــون فى حركة وكل جزء يباشر قـــوة على أجـــزاء أخـــرى ، لا يمكن تعين مكان أصل الحركة) (١) · ولكنـــه يعـــود فيقـــول فى مكان أخـــر (واضح أن الظروف الاجتماعيـــة تمهـد للاختراعات الميكانيكية ، وأيضـا الاختراعات الميكانيكية تسبب تغيـرات فى الظـروف الاجتماعية · ولكن من المرغوب فيـــه معرفة أى التتابع أكثر عمومية ، لم يؤسس بعـد تعميما شاملا فى هذه النقطة ، ولكنه فى الوقت الحاضر فى العالم الحديث يبـدو أنه أسهل وجود بيانات عن تكنولوجيا تسبب تغيرات فى الظروف الاجتماعية · ومـن ثم نحـن نميـل لتفضيل الفـرض ذى الأهمية الكبرى وهـو أن تتـابع التكنولوجيا يسبب التغيرات الاجتماعية) (٢) ·

ومن ذلك يتضح أن أوجبرن ونمكوف عندما يتحدثان عن العالم الحديث . هما يربطان حديثهما بزمان معين ومكان معين ، هـو المجتمع الأمريكى بعد الاستقلال· اذ لو اتجه أوجبرن ومن تبعه من العلماء الى أوربا التى كانت المصدر الأول للتراكم التكنولوجى فى العالم الحديث لتبين لهم أنه لولا حركة اجتماعية ضخمة عبارة عن تغير كبير فى وجوه الثقافة اللامادية ، وهى تلك الأفكار والقوى الاجتماعية التى عملت على خلخلة قبضة الكنيسة وضبطها للنظم الاجتماعية والعقلية فى أوربا · ففى الحقيقة ان (نموا دقيقا وهاما فى التاريخ الاجتماعى للمجتمعات الغربية ، هو ما سهـل الى حد كبير التغيـــرات التكنولوجية والتنظيمية والأيديولوجية ، التى ميزت المجتمع الحديث من مجتمع القرون الوسطى ، هو التقلص التدريجى فى دور الأيديولوجية الدينية وزيادة فى الأيديولوجية الدنيوية) (٣) ·

وكذلك أخطأ أوجبرن ومن شايعه فى اعتبار أن المجتمعات البدائية التى تكابد تغيرات اجتماعية شديدة وسريعة نتيجة لوطأة التغير التكنولوجى الذى

---

1 — Ogburn and Nimkoff : Hand Book of Sociology» Op. Cit., P. 57.

2 — Ibid., P. 577.

3 — La Piere, Richard : Op. Cit., P. 304.

جلب اليها وفرض عليها فرضا · اذ أن أوجبرن كان واقعا تحت وطأة القهر الأيديولوجى وفكرة قبلية كونها عن المجتمع الأمريكى ، وكذلك استهواء رؤية الآثار الاجتماعية لوطأة التغير التكنولوجى ، دون النظر الى العملية الديناميكية التى يتميز بها التغير الاجتماعى نظرة شاملة · اذ أنه ومن شايعه لم يتبينوا أن تلك المجتمعات البدائية هى أولا وقعت تحت وطأة الاستعمار ، والاستعمار يعنى أولا تغيرا فى النظام السياسى فى تلك المناطق ، أى أولا تغيرا فى أحد وجوه الثقافة اللامادى ، والا لما أتيح لهذه العناصر التكنولوجية أن تفرض عليهم ، ولو كانت قدمت لهم دون مساندة النظـام السياسى المتمثل فى الحكـومة المستعمرة ، لاتخذ التغير شكلا آخر · أى أنه حتى فى هذه المجتمعات التغير ابتدأ أولا فى الوجوه اللامادية من الثقافة ·

ولو نظر أوجبرن ومن تبعه الى هذه المجتمعات من ناحية أسباب التخلف الثقافى لوجدوها تختلف تماما عن أسبابها فى المجتمعات الحديثة ولأفصحت عن طبيعـة العمليـة الاجتماعية · فى المجتمعات الحـديثة (المجتمعات الرأسمالية) فى هذه المجتمعات يكون التخلف فى عناصر الثقافة اللامادية هو نتيجة النمو السريع الذى يطرأ على التكنولوجيا وأساليبها وعلى التنظيم الاقتصادى ومؤسساته ونمو العلم وأساليبه الفنية والتطبيقية مع بطء نسبى فى عناصر الثقافة اللامادية فى نفس المركب الثقافى · بينما التفاوت فى المجتمعات البدائية ينشأ عن التعارض بين مركب ثقافى بما فيه العناصر المادية الذى فرض عليهم ، ومركبهم الثقافى ، أو بين النظم الاجتماعية بما فيها النظام الاقتصادى وتكنولوجيته ، ونظم المجتمعات البدائية ، فهو نوع من الصدام الثقافى ، وليس نوعا من التخلف الثقافى بين عناصر مواد ثقافة واحدة ، جانب منها يتخلف وراء الجانب الآخر كما هو فى مفهوم أوجبرن ومن شايعه · إنما يمكن النظر على أنه نوع من انعدام التوازن الجذرى ، فالمجتمع البدائى قبل وقوعه تحت الاستعمار كانت العلاقات الاجتماعية فيه تؤلف نظمـا اجتماعية متجانسة بل وشديدة الترابط ، أو بمعنى آخر مركبا ثقافيا متكاملا يشيع فيه التوازن · ولكن الاستعمار يأتى أولا بتغيير فى النظام السياسى أى يفقد المجتمع حرية العمل والتفكير وفقا لنظمه ومعتقداته · ومن ثم يحدث انعدام التوازن

ويصبح المركب الثقافى غير منسجم ولا متسق ، وانما تتصارع فيه قوى التحكم والضبط الاستعمارى معقوى الضبط الاجتماعىالأصلية ، بحيث يصبح الصراع بين قانون استعمارى مفروض وبياشر تنفيذه المستعمر ، وقيم المجتمع الأصلى ، أى بين أسلوب فى الحياة وأسلوب آخـر ، فهو تعارض جذرى ولا يشبه على الاطلاق ذلك الذى يحدث فى المجتمعات الغربية نتيجة التغيرات التكنولوجية دون التعرض للمركب الثقافى ككل ، بل هو تعارض فرعى بين متغيرات فرعية وليس بين أسس البناء الاجتماعى ، الذى أيضا قد يتضمن قوى متعارضة ولكنها عادة تكـون فى حالة اتساق وانسجام أو فى حالة توازن ، وهذا ما يسمح فى المجتمعات الغربية بالتغيرات التكنولوجية وآثارها الاجتماعية دون احداث أزمات مدمرة للنظم الاجتماعية ، وخاصة أن تلك المجتمعات قد جهزت ثقافتها بعرف وتقاليد عالية التشجيع للتغيرات فى المجال التكنولوجى ، وهذا يعتبر أحد عوامل الاتساق والانسجام للقوى المتعارضة فى تلك الثقافات ٠

والشق الثانى الذى اختلف حوله علماء الاجتماع فى مسألة التخلف الثقافى هو اختلاف معدلات السرعة التى تتغير بها مختلف وجوه الثقافة أو مختلف النظم الاجتماعية ، أو ما درسه آخرون من ناحية اختلاف درجة تأثر عناصر الثقافة المختلفة أو مختلف النظم الاجتماعية بالتغير التكنولوجى ٠ وفى الحقيقة أن هذه المسألة تدور حول الظروف الحاكمة للتغير ، أو العوامل الاجتماعية التى تتدخل فى عملية التغير ، ليس التكنولوجى فقط ، بل أى عملية من عمليات التغير الاجتماعى ٠ وهو ما يجب أن يسميه بعض علماء الاجتماع بتسهيلات أو عوائق التغير فى المجتمع أو ما يذهب اليه علماء الأنثروبولوجيا فيطلقون عليه اسم عوامل القبول أو الرفض ٠

وتدور هذه المسألة حول نقطتين ، الأولى هى اتجاه المجتمع نحو التغير نفسه من حيث التشجيع عليه أو مقاومته ، أو فى كلمات أخرى قيم وتقاليد ومعتقدات وعادات المجتمع أو ما يطلق عليه أوجبرن ومن شايعه بالعناصر اللامادية ، أو ما يسميه آخرون بأيديولوجية المجتمع واتجاهاتها نحو التغير ٠ والنقطة الثانية فى هذا المبحث هى طبيعة النظـم الاجتماعية المؤسسة فى

علاقتها بعملية التغير من حيث التسهيل أو المقاومة ، ويتعلق بهذه النقطة الممارسون للنظم وهى الجماعات المتفاعلة داخل المجتمع ، واتجاهات كل جماعة نحو عملية التغير المقدمة ومدى تأثيرها على مكانة وأدوار كل جماعة من حيث القوة والرفعة أو التدهور والتهديد لمراكزها ، أو ما يحب بعض علماء الاجتماع تسميته بظاهرة المصالح المكتسبة ٠

النقطة الأولى وهى اتجاه المجتمع نحو التغير من حيث قبول أو رفض ، أو تسهيل واعاقة عملية التغير ، تكمن فى أن كثيرا من المجتمعات قد هيأتها ثقافتها اللامادية أو قيمها وتقاليدها وعاداتها وأيديولوجيتها لقبول التغير ، وأخرى هيأتها لرفض التغير ٠ (فأهمية الميول الاجتماعية فى تحديد الانجازات الحالية لابد وأن يؤكد عليها بصفة خاصة ، من بين هذه الميول سوف يكون الميل نحو التغير الاجتماعى نفسه ، فالمقاومة أو منع التغير الاجتماعى قد يكون قيمة عظيمة فى بعض الثقافات ، بينما فى مجتمعات أخرى يشجع التجديد ويكافىء ويشرف) (١) ٠

فعلماء الاجتماع وخاصة الأنثروبولوجيون ممن يهتمون بدراسة البناء الاجتماعى يذهبون الى أن البناء الاجتماعى يتميز بالاستقرار النسبى وأن لديه القدرة على الاستمرار فى الوجود ، الا أن الأبنية الاجتماعية تختلف من حيث درجة المرونة والجمود التى تتصف بها ، وأن التغير الاجتماعى الذى يحدث فى هذه الأبنية يتوقف على درجة مرونة وجمود البناء . فما عملية التغير الاجتماعى الا تفاعل لهاتين الخاصيتين ، أو صراع بينهما على الابقاء أو التغير، ومن ثم يتوقف التغير الاجتماعى فى تلك الأبنية الاجتماعية على العناصر أو القوى الاجتماعية التى تتيح لخاصية دون الأخرى التفوق النسبى ٠ وأن الذى يجعل لدى البناء الاجتماعى القدرة على التغير هى خاصية المرونة ، والقوى الاجتماعية التى تتيح لهذه الخاصية التفوق النسبى تكمن فى أن هناك بعض المجتمعات قيمها وعاداتها وتقاليدها هى دائما فى حالة توقع للتغيرات ٠

وما التوقع الا اعتقاد مشعور به بأن تغيرا ما سوف يحدث ، أى أن

---

1 — Lundburg and others : «Sociology» Op. Cit., P. 715.

ثقافة مثل ذلك المجتمع تكون مفتوحة للتغيرات ، أو فى كلمات أخرى أن المناخ الاجتماعى يشجع على استقبال التغيرات ، فمثلا (المناخ الاجتماعى للاختراع فى مجتمعنا هو يعجل بهذه التغيرات التكنولوجية التى ينظر اليها على انها مرغوبة ، طالما أنها تبدو أنها تجعل الحياة أسهل وأغنى وأكثر اشباعا · فيقابل المجدد فى هذه الحقـول بالتقـدير وتتوج مجهوداته بمكافآت مالية ، فى التكنولوجيا والعلم التطبيقى هناك جو من القبول) (١) · ولكن هذا القبول ليس متروكا بلاحدود (فتوقعاتالتغير دائما تضع صورا محددة علىعملياتها· يتوقع التغير فقط بين حدود معينة) (٢) · كما أنه ليس متماثلا أو بدرجة واحدة عند كل المجتمعات ، فهناك مجتمعات يكون القبول مسموحا به فى بعض وجوه الثقافة دون الأخرى ، كما تختلف درجة القبول فى تلك الوجوه المسموح بها باختلاف المجتمعات ، أو قد يكون التغير مقبولا ومسموحا به فى كل أوجه الثقافة فى مجتمعات أخرى · ففى المجتمعات ذات الثقافة الراقية (هناك تقليد طويل من توقع التغير فى المخترعات التكنولوجية التى تعمل على اثراء الحياة البشرية) (٣) ·

وكذلك التغير تختلف درجات قبوله باختلاف وجوه الثقافة (يعكس الاستقبال التقليدى الذى أعطى للاختراعات التكنولوجية اختراع دين جديد أو نظام أسرة أو أيديولوجية اقتصادية ، يقابل باتجاهات تبتدىء من الشك الى العدائية السافرة) (٤) · ويليه فى الدرجة الحقـل الذى يقع فيـه التغيـر التكنولوجى ثم النظم الشديدة الترابط بالتكنولوجيا ، ولكن أيديولوجية المجتمع الأمريكى تقف حائلا أمام قبول التغير فى النظم الاجتماعية ، كما وضح بارنز فى حديثه عن تخلف النظم الاجتماعية فى ذلك المجتمع ، اذ أن تقاليده وقيمه وعرفه تقف حائلا دون مجرد التفكير فى التغير فى هذه الجوانب من الثقافة ويعبر عن ذلك سمنر بقوله · (هناك من يريدون مناقشة الزواج المزدوج ·· فشلوا فى الحصول على من يسمح لهم بذلك · والبعض الآخر يريد مناقشة

---

1 — Mirrill : Op. Cit., P. 474.
2 — Barnett : Op. Cit., P. 57
3 — Ibid., P. 313
4 — Mirrill : Op. Cit., P. 475.

الملكية . وبالرغم من أن هناك كتابات نشطة فى هذا الموضوع فلا أحد يريد مناقشته · الزواج والملكية هم فى المعايير · · الشىء الذى يلاحظ فى كل هذه الحالات أن الجماهير تعارض كل مناقشة ضد المعايير) (١) ، أى أن المجتمع الأمريكى ليس فيه توقعا للتغير فى هذه الوجوه من الثقافة ·

وفى الناحية المقابلة هناك مجتمعات توقع التغير فيها أمر مطلق ومباح فى كل وجوه الثقافة ، فمثل هذه المجتمعات يتميز بناؤها الاجتماعى بمرونة عالية لتقبل التغيرات (فجماعة النفاجو Navago يتوقعون نموات جديدة فى ثقافاتهم وفى تاريخهم ··· فهم يرحبون بالتغير ويقبلونه على أنه تكيف حقيقى للعالم المحيط بهم · وكذلك الساموانز Sumoansمن المتوقعين للتغيرات ولكن بطريقة تختلف عن النفاجو ، فهم يتوقعون أن كل فرد بينهم يتحد مع كل شىء يفعله ، والتقليد شىء مؤسف ، فكل فرد له طريقته فى لبسه وفى رقصه وفى بناء مسكنه ، فتوقع الانحراف يمتد حتى الى الدين والتنظيم السياسى لكل من الفرد والقرية ، فالقاعدة هى التجديد) (٢) · بـل هناك مجتمعات بلغت درجة توقع التغير فيها الى أعلى مستوياتها ، أى أن ثقافتها قد جهزت ذلك المجتمعللتواؤم معأى تغير وفى أىوجه من وجوه الثقافة مثل جماعة البالوانز Paluans (يتوقعون التغير فى ثقافتهم ، هذا الاتجاه منسجم مع تاريخهم · فالظاهر أنهم كانوا دائما غير مستقرين سياسيا ، والهزيمة ومعاناتها ليست شيئا جديدا بالنسبة لهم · فمنذ اكتشف الجزيرة الأوروبيون فـان شعبها قد أخذ سيادة الغرباء عليهم كأمر طبيعى وأنه حق خاص للمنتصر · فهـم تفلسفوا حول التغيرات التى قدمهـا الالمان واليابانيون والأمريكيون · بل بعضهم يسأل من التالى) (٣) ·

كل هذه الحالات تبين أن التغيرات التى تتمشى مع المعايير من السهل احداثها (لكن التغيرات التى تعارض المعايير تتطلب مجهودا طويلا وصبرا

---

1 — Sumner : Op. Cit., P. 76—77.

2 — Barnett : Op. Cit., P. 56—57.

3 — Ibid., P. 99

اذا كانت ممكنة كلية) (١) ومن ثم فالمعايير تشكل التغير بلونها وتحدد منذ اللحظة الأولى المقبول منه والمرفوض · وهكذا فايديولوجية أى مجتمع هى (جزء حيوى من الحياة الاجتماعية وبتوليفها مع العوامل الأخرى ، فانها تعمل اما لتبنى وتسهل التغير فى النسق الاجتماعى أو لا تشجع وتعارض التغير) (٢) · فالمعايير لأى مجتمع ذات تأثير بالغ فى قبوله أو رفضه لنوع معين من التغيرات ، اذ أن تلك المعايير ما هى الا التصورات الفكرية لذلك المجتمع سواء عن علاقة أعضائه ببعض أو علاقتهم بالبيئة الطبيعية ، ولما كان أى تجديد لا يقفز من لاشىء ، انما هو ينشأ فقط بين تلك الأفكار ، وأن الأفكار هى التى ألفت بين عناصره ، فطالما أن التجديد منبعث من خلال الأفكار فهى اذن التى تشكل مادته الأولى ، ومن ثم فهى تحدد منذ اللحظة الأولى مجاله وأسلوبه ·

ولا يمكن النظر الى هذه المعايير أو الايديولوجيات كعوامل ثابتة لأنهم لا ينشئون انفسهم من لا شىء ليحدثوا آثارهم ، كما أن آثارهم تتغير بتغير محتوياتهم فمحتوى الأيديولوجية فى المجتمعات الأوربية فى القرون الوسطى التى كانت تقوم على الأفكار الدينية ذات القداسة والتحريم الشديد ، منعت تلك المجتمعات زمنا طويلا من التفكير فى مواضيع معينة ، أو بمعنى آخر من محاولة التوليف بين عناصر الثقافة توليفة جديدة غير التى أتاحتها الكنيسة ، ومن ثم كانت هذه الفلسفات الاجتماعية عائقا وحائلا دون التغير السريع فى تلك الحقبة · ولكن عندما ابتدأت الأفكار القائمة على أساس من التفكير العقلى والتحرر من الحجر الكنسى ، أو بمعنى آخر الأيديولوجيات الداعية الى التجديد وحرية الحركة نحو التوليف بين عناصر الثقافه ، فان تحول وتغير محتوى الأيديولوجية الأوربية هيات المناخ الاجتماعى للتغير ، اذ أن الفرق بين الأيديولوجية الكنسية القائمة على جزاءات صارمة وممارسين لا يقبلون أى تفسير الا ماتركه الأسلاف من القساوسة ، وبين الأيديولوجية الدنيوية التى تجعل مواد الثقافة أيا كانت خاضعة للشرح والتفسير لكل

---

1 — Sumner : Op. Cit., P. 94.

2 — Le Piere : Op. Cit., P. 263.

فرد عن طريق العقل والتجريب ، اذ (تتضمن الأيديولوجية العلمانيةمفاهيم قابلة للاختبار كلية ، ولهذا الأيديولوجيةالعلمانية يمكن أنتتغير كنتيجةللخبرات التجريبية · فطالما يعتقد الناس حقـا أن ملوكهم ملوكا بالارادة الآلهيـــة ومرسمين آلهيـــة ولا يمكنهم فعل الخطأ ، سوف لا يرغبون فى الخروج عن هذه القاعدة مهما كانت الأدلة التى تقدمها تجاربهم الشخصية مع حكمه · ولكن عنـــدما يصبح الناس يعتقدون أن حكومتهم من صنع أنفسهم أو أجـدادهم سوف ينظرون الى أعمالهـا نظرة المحـاسب بـل وقد يعملون ضدها) (١) ·

كما أن الأيديولوجية الدنيوية نوعان ومن ثم يختلف تاثيرهما على التغير ، فلقد ذكر أوجبرن أن هنـاك نوعين من الأيديولوجية ، أحداهمـا خيالية وهى تصدر عن التطلعات وآمال الانسان ومخاوفة أو مشاعر أخرى ، وسمى هذه الأفكار بالمعتقدات · وانهـا تحتوى أفكارا لا تتعلق عن قرب بالحقائق ، ورغم ذلك لها تاثيرها ، فهى تتحكم فى عملية التغير ، وضرب مثلا لذلك بفكرة الجنس فى الأيديولوجية النازية التى لم يكن لها أساس حقيقى سواء بيولوجى أو انثروبولوجى ورغم هذا لعبت دورا هاما فى بناء اقتصاد مكتف ذاتيا فى السلع المادية · كما أن هناك أيديولوجية تتميز بخليط مـن أفكار الحقيقة والخيال ومثل لذلك بفـكرة دعـه يعمل · وقرر أن العـالم المادى يتاثر أكثر بواسطة الأفكار الواقعية عن تاثره بالمعتقدات · فالثقـافة المادية لا تلين بسهولة للأفكار من النوع الخيالى (٢) ·

وهكذا فطالما يعتقد مجتمع ما فى أن أحد أوجه الثقافة لا يجوز فيـه التجديد اما بسبب العرف أو التقاليد أو القيم أو الأيديولوجية ، يصبح تغير هذا الوجه من الثقافة بطيئا جـدا ·

وليس معنى هذا أن هذه المعتقـدات أو القيم أو الأيديولوجيات هى قوالب جامدة غير قابلة للتجديد بل هى أيضا تجرى عليها عملية التغير ·

---

1 — Ibid., P. 304.

2 — Ogburn and Nimkoff : Op. Cit., PP. 578—481

ومن ثم فان القيم التى تشجع التغير تكون هى ذاتها متاثرة بهذا التغير ، بمعنى أنه كلما كانت القيم من النوع المشجع على التغير تصبح هى ذاتها أسرع تغيرا من تلك التى لا تشجع التغير ، فهى كما تقف حائلا دون التغير لا تتغير هى · وهكذا يصاب المجتمع بالجمود أو المرونة نتيجة لما فيه من قيم ومعتقدات ومعايير · وفى الحقيقة أن هذا المجال من المجتمع أو الثقافة هو أشد المناطق مقاومة للتغير ، ومن ثم أقلها تأثرا بالتغيرات الاجتماعية أو التكنولوجية ، اذ أن هذه العناصر لها جلالها وقدسيتها التى اكتسبتها من كونها أتت الينا من الماضى وغرست فينا وتوحدت مع ذواتنا أثناء عملية التنشئة الاجتماعية · (فلقد أتت الينا المعايير من الماضى ولقد ولد كل فرد بينها ، وطالما أنه ولد فى جوها ، فهو لا يستطيع أن يضيف عليها أو يفقدها ، ومن ثم يذعن كل فرد لتأثير المعايير وتشكله قبل أن تكون له القدرة على فحصها عقليا) (١) ·

وليس معنى هذا أنها لا تحمل فى طياتها الأسباب العقلية لرسوخها ولكن بالعكس (هى تتضمن فى ذاتها تبريراتها الذاتية بواسطة التقاليد والفائدة والرغبة وتؤيد بجزاءات خفية ، وهى ليست منبهة للفكر بل على العكس ، فقد تم صنع التفكير وأصبح منغرسا فى المعايير ، وهى لا تحتوى اطلاقا أى تجهين لتغيير ذاتها فهى ليست أسئلة ولكنها اجابات لمشاكل الحياة فهى تضع نفسها كشىء نهائى وغير متغير لأنها تقدم اجابات معطاة على أنها صدق) (٢) ·

وهكذا ينمو الانسان فى مجتمع معين ذا عرف وتقاليد وقيم معينة ، هذا النمو الواقع تحت تاثير وفى ظل هذه العناصر يشكل أسلوب أعضاء المجتمع فى التفكير والعمل ، ومن ثم تصبح قوالب ذات صلابة ، ولهذا ينظر أعضاء المجتمع لمواد الثقافة وما يطرأ عليها من تغير فى أساليب منمطة قد هيأتها

---

1 — Sumner. Op. Cit., P. 76.

2 — Ibid P. 79.

تلك الأنماط وكونت منها فلسفة عن الحياة ، تلك هى التصورات الفكرية التى يواجه المجتمع بها التغيرات ، ومن ثم فان كانت التغيرات تتفق مع تلك المعايير فانه يسمح بها ، وتلك التعيرات التى تتعارض معها تقاومها وتكبتها من ناحية ، ومن ناحية أخرى يكون تأثرها هى بالتغير يكاد لا يذكر ، أى أن هناك تناسبا طرديا بين مقاومة المعتقدات والقيم وبين شدة تأثرها بالتغيرات ، (ولهذا يعتبر التغير تغلبا على المقاومة ، اذ أن عملية التغير طالما أنها تتعدى على الأنماط المنتظمة للفعل والعلاقة • لهذا ليس التغير أبدا مجرد تحول للأنماط ولكن تحولا بواسطة التغلب على المقاومة) (١) •

وذلك هو السبب فى أن التغير التكنولوجى أصبح سريعا فى الثقافات الراقية حيث أن المحتوى الثقافى ليس فيه مقاومة لهذه التغيرات ، اذ أن قيمه وأيديولوجيته سوف تسمح مباشرة بنجاح التغير فى المحتوى الادراكى للجزء الخاص بها من الثقافة • والعكس صحيح ، بمعنى أن شدة المقاومة التى تقابل التغيرات فى مجال النظم الاجتماعية فى المجتمع الأمريكى مثلا تسبب عدم قدرة التغير على التغلب على المقاومة المتضمنة فى المحتوى الثقافى للمجتمع •

وبالمثل اذا كانت عناصر الثقافة شديدة الترابط وكان الابدال جذريا . فان المقاومة تبلغ أعلى مراحلها ، وتخف حدتها اذا كان الابدال سطحيا • كما يحدث عندما يراد ادخال فى ثقافة شديدة الترابط ، عنصرا من ثقافة أخرى تختلف عنها جذريا أى ذات قيم وعادات وتقاليد متعارضة تماما • اذ أن العنصر الثقافى المراد ادخاله ، هو فى ثقافته الأصلية يشكل حالة من التوازن والانسجام والتكيف مع بقية عناصرها ، فاذا نقل الى الثقافة المتعارضة فهو بالتالى يكون متعارضا مع عناصرها ويشكل حالة من اللاتوازن وسوء التكيف ، ومن ثم تشتد المقاومة لاخراج العنصر المحدث للاتوازن لاعادة التوازن الى ما كان عليه ، أو مساندة العنصر الدخيل بقوة كبيرة تمكنه من التغلب على المقاومة لاحداث تغيرات جذرية فى المحتوى الثقافى لقبول التغير نفسه •

---

1 — Parsons • «Social System» Op. Cit., P 491.

ذلك يشبه ما حدث فى المجتمعات البـدائية نسبيا التى وقعت تحت سيطرة الاستعمار الأوربى ، وخاصة اذا كانت ثقافة المجتمع المقهور مـن النوع الذى مناخه الاجتماعى لا يهيء لقبول التغيرات ، ومن ثم (فالتغير يقبل واقعيا ولكن بمعنى القهر فبعض الناس يقبلون الذى لا يمكن تجنبـه بيأس ، والبعض يقاسون فى صمت والبعض فى مرارة ، حقيقـة أن بعض الناس يتوقعون التغير ولكن لا يرحبون به ، هذا لا يعنى أنهم تحت رحمـة القوى الاجتماعية التى ليس لهم سلطان عليها ، انما يعنى هذا انهم تحت رحمة أناس آخرين ذوى عقائد وأفكار عكس أفكارهم وعقائدهم) (١) ، وذلك ما يطلق عليه بعض العلماء (التكيف الثقافى العـدائى

(Hestile acculturation) (٢) حيث تكون عناصر الثقافة المفروضة متعارضة جذريا مع عناصر الثقافة المفروضة عليهـا ، ومن ثم يعنى التغير فى تلك المجتمعات التغلب على مراكز المقاومة فى المحتـوى الثقافى لتلك المجتمعات أى قيمهم وعاداتهم وتقاليدهم ومعاييرهم ، ومن هنا تتدهور القيم المتوارثة وتتفكك العـلاقات الاجتمـاعية التقليدية ، ويصـبح المجتمـع غير متوازن ولا منسجم اذ أن القوى التى كانت تعطيه تماسكه قد قهرت ٠

وتخف حدة المقاومة اذا كانت عناصر الثقافتين المستعيرة والمعـيرة متشابهتين ، ومن ثم يكون توطين السمة الثقافية الجديدة غير مقلق للقيم والتقاليد لتشابههما فى الثقافتين ، وان أحدث شيئا من اللاتوازن فهو من النوع الذى يمكن التغلب عليه بسهولة لأنه لا يمس مراكز المقاومة الشـديدة من ناحية ومن ناحية أخـرى تكون هنـاك القوى الاجتمـاعية التى سببت الاستعارة مؤيدة للسمة الجديدة ، كأن تكون هذه السمة أكثر اشباعا مـن السمة القديمة ، وهذا ما يطلق عليه التكيف الودى
(Freindly acculturation) (٣)

---

1 — Barnett : Op. Cit., P. 59.

(٢) د ٠ أبو زيد (بناء اجتماعى) ج ١ ، ص ٢٧٨ ٠
(٣) المرجع السابق ص ٢٨٨ ٠